
مجموعة قصصية
سور الخوف العظيم
د. محمد لبيب سالم
كيانك
للنشر و التوزيع

سور الخوف العظيم

اسم الكتاب	:	سور الخوف العظيم
النوع	:	مجموعة قصصية
تأليف	:	د. محمد لبيب سالم
إصدار	:	2021
تصميم الغلاف	:	يوسف محمد
التصحيح اللغوي	:	ولاء المظالي
الإخراج الفني	:	هند محمود
رقم الإيداع	:	2021/23108
الترقيم الدولي (ISBN)	:	978-977-994-233-9



جمهورية مصر العربية، القاهرة

مدير النشر: د. محمد أبو زيد

+20 114 240 2108

kayankpublishing@gmail.com

سور الخوف العظيم

مجموعة قصصية

د. محمد لبيب سالم

إهداء

إلى كل الخائفين في هذا العالم من شيء ما وتقوقعوا في سجن الخوف، وإلى كل الذين هدموا سور الخوف وتحرروا منه أحرارا، أهدى هذه المجموعة القصصية.

كلمة الكاتب

الخوف أكبر مطرقة وهمية تهشم القلوب. وقد يتسلل إلى قلوبنا خوف مستتر لا نعرف له مصدرا، فلا نستطيع تجنبه حتى يتمكن من قلوبنا وسلوكنا. ويمر الزمان بنا سريعا لنفاجئ بأن ما كنا نخاف منه ما هو إلا هروب من واقع كنا نهابه، مع أنه كان أضعف منا. حينئذ، سوف نكتشف كم كنا أطفالا نري كل شيء حولنا أكبر وأعظم وأقوي من كل الناس والأشياء. حينئذ فقط، سوف نتمنى أن يعود بنا الزمان إلى الوراء حتى نثبت لأنفسنا أننا أقوي من أي خوف، ولكن الزمان لا يعود أبدا إلى الوراء، وأن الخوف قد نال منا وأخذ أجمل ما فينا.

وعن هذه المشاعر تدور هذه المجموعة القصصية التي سوف تجد نفسك تشترك في أحداثها هنا أو هناك لتعبر عن مشاعرك من الخوف من فراق حبيب، أو لقاء غريم، أو من ظلم واقع أو عذاب ظالم.

سور الخوف العظيم

عمل جاهدا ليل نهار بأن يجمع كل ما يقدر عليه من المال طوال فترة غربته ليستمتع بما جمع بعد عودته لبلاده. وبعد أن حقق ما أراده وزيادة عاد سعيدا منتشيا حاملا متاعه وأفكاره وطموحاته التي لا تنتهي.

وما أن وطئت قدماه أرض الوطن ونظر في عيون الناس التي وصلت إلى داره تسلم عليه وتستقبله بدفء وشوق وترحاب من بعد غياب طويل حتى تسلل إليه شعور جارف بعدم الثقة في هؤلاء الناس والخوف من أطماعهم وأحقادهم. وبعد أن رحل الزوار تحول هذا الإحساس سريعا إلى وسواس مزمن يعكر عليه صفو ما جمعه.

ومنذ تلك اللحظة الفاصلة في حياته قرر أن يعتزل القرب من الناس وأن يكتفي بكلب أليف اشتراه خصيصا لحراسة قصره والشغالة

مربية المنزل وزوجها الذي أحضرهما خصيصا من الخليج لخدمته حتى لا يحتاج إلى أحد. ووسوس إليه عقله الباطن الخائف من الناس أن يبني سورا نفسيا عاليا بينه وبينهم ليحميه من غيرتهم وأحقادهم. ولكن أبدا لم يمنع هذا السور النفسي وساوسه القهرية التي أصبحت ككرات اللهب التي تتدحرج في صدره بل حتى بات الليل عليه طويلا. وهنا قرر أن يبني سورا آخر، سورا من الأحجار الضخمة والصخور التي لا تقهر ليس في قلبه بل على أرض الواقع.

استمر يبني في هذا السور شهورا عديدة ليكوّن حائلا بينه وبين الناس قريبهم وبعيدهم. سورا أنفق عليه الكثير مما جمع حتى يعيش وراءه بمأمن عن الجميع. ولما انتهى بناء السور وقف أمامه منبهرا بعظمة البناء وشموخ عليائه وارتفاعه وحصانة بواباته العملاقة التي لا يملك مفاتيحها سواه. وقف منتشيا سعيدا واثق الخطوة يمشي ملكا وراء سوره الذي بدا كالحصن المنيع.

وفي كل مرة يعتلي فيها السور أو يختلي بنفسه في حجرته المفضلة من عشرات الحجرات لكونها تطل على قمة السور تتسلل إلى نفسه مشاعر الوحدة وتعلو في قلبه الحاجة أن يكون وسط الناس ورغبة جارفة بأن يفتح أبواب قصره لهم على الأقل؛ ليشعر بالثناء والامتنان والفرحة في عيونهم. وكلما مسته هذه المشاعر تمنى لو يخرج ويعتلي سور الخوف في نفسه ليفتح كل الأبواب وينادي على كل الناس "حي على اللقاء، حي على السماح". إلا أنه وبعد كل نوبة بين الفخر بما

حقق والخوف عليه والاشتياق للناس كانت تنتهي النوبة بقرار العدول عن مشاعره والاستمرار في عزلته حتى يطمئن إلى الناس يوما ما. ويعود إلى كلبه وإلى بعض الحوار المكرر مع مربية المنزل وزوجها.

وكلما مر الناس بالقرب من سور القصر سمعوا نواح كلب الحراسة ورأوا مربية المنزل وزوجها وهما يخرجان من بوابة القصر ويدخلونه بعد قضاء احتياجات سيدهم من السوق. وفي كل مرة يتكرر هذا المشهد ينظر الناس غير مصدقين لما جرى وما يجري.

فكيف للجار أن يبني سورا عاليا حوله وحده وهو وحيد هناك في بيته، ولماذا كل هذا الارتفاع، ولماذا كل هذه الأبواب، ولماذا كل هذا العناء ونحن لا نملك إلا أن نحبه.

هل يخاف منا أم يتعالى علينا أم يتملكه الغضب منا وأراد أن يهجرنا. حتى وإن أراد أن يهجرنا فنوح عندما غضب على قومه الكافرين لم يبنِ سورا بينه وبينهم ولكنه بنى سفينة له ولهم ولمن تبعه من قومه. فلماذا هذا السور ونحن لسنا كفارًا وهو ليس بنبي؟

وبعد فترة من بناء سور الخوف العظيم شعر بإجهاد شديد وتعب بدأ يتسلل إلى كل خلية في جسده حتى خارت قواه رويدا رويدا فألقى بجسده على الأرض بجوار السور وفي جيوبه مفاتيح أبوابه المغلقة جميعا ولا أحد هنا سواه.

حاول أن ينادي بأعلى صوته لعل أحدا من الناس هناك وراء السور يسمعه، ويلبي نداءه الخافت، ويأتي ليفتح له بابا من الأبواب وينقذه.

ولكن لم يلبِّ أحد النداء فكيف لأحد أن يسمع صوته الخافت؟ وكيف لأحد أن يعتلي هذا السور العملاق؟ وكيف لأحد أن يفتح أبوابا لا يملك مفاتيحها؟ ظل ينادي وظل صوته يتهاوى حتى راح صوته في غيبوبة صمت وسكون.

تعجب الناس من صاحبهم فقد غاب عنهم مشهد اعتلاء السور مع كلبه وهو يمشي فوقه في خيلاء. تساءلوا أين هو؟ هل سافر؟ ولكن الأبواب كلها مغلقة؟ ولكن قد يكون سافر خُلسة. ولكن الكلب يعتلي السور بمفرده ويستمر في نواحه بجنون. ولم يعد الناس يرون الخادم وزوجته منذ يومين. هل مرض الرجل؟ ولكن لماذا الكلب بمفرده هناك بالداخل وحيدًا؟ واحتار الناس في أمرهم ماذا هم فاعلون؟ فبالرغم من حنقهم على تصرفاته وخيلائه وانعزاله إلا أن القلق عليه ملأ قلوبهم. وانشغل الجميع كيف يتأكدون أنه بخير؟

وهو في غيبوبته ظن الناس أنه بالداخل طالما الكلب ما زال هنا ينبح ويعتلي السور وأن خادميه سرقا الثمين من قصره وهربا.

وهنا قرر بعض الرجال التعلق بحبال لينزلوا بها إلى فناء قصره ليبحثوا عنه دون أن يلقوا بالا لرأيه فيهم. وجدوه ملقًى على الأرض وكلبه يلهث بجانبه وهو جثة هامدة تنتظر من يلقنها الشهادة.

وعلى الفور حمله الرجال وهو يحتضر إلى أقرب مستشفي. تعجب صاحب السور العظيم في غيبوبته، وحمد الله أن أرسل إليه من يعتلي سور الخوف الذي صنعه بيديه ليكون حائلا منيعا بينه وبينهم.

تمنى وهو في غيبوبته أن يصحو ليبدأ مشوارا آخر في حياته مع هؤلاء الناس، مشوارا كان يتمناه منذ الصغر ولكن خوفه من المجهول جعله فريسة لوساوس نفسه وعبدا لخوفه على ما جمعه في غربته. تمنى أن يصير قصره بيتًا الناس، يجعل منه مستشفى ومسجدا ومدرسة. تمنى لو يصحو من غيبوبته ليخبر كل الناس بأن ما جمعه هو من رب الناس. تمنى لو يصحو فيولد من جديد. تمنى وتمنى وطالت غيبوبته ووحدته والناس حوله يتمنون أن يفيق.

وعندما فحصه الطبيب على سرير المرض والملاءة البيضاء رسم على وجهه ملامح الرثاء والعزاء لعل الناس يدركون الرحيل...

بكى الناس موقف الرحيل، وعادوا بجثة الرجل بلا روح قبل أن تخبرهم بما كان تمنّى قبل أن تصعد إلى السماء.



سيول الحق

اقتربت الساعة من العاشرة مساء ولم يرن تليفون المنزل ولا تليفونه المحمول. فقد الأمل في تلقي الاتصال المتوقع ولكن واضح أن آخر بصيص من الأمل قد تلاشى وهو ما كان يتوقعه وجده بكل المقاييس، ولكنه الأمل الذي دائما ما يجعل النفوس تزحف بقلبها نحو أي بصيص نور يضيء لها الطريق.

ترك زوجته "غادة" في غرفة المعيشة وقبّل أولاده قبل أن يذهبوا إلى النوم وقصد غرفة نومه وأطنان من الفكر تثقل كاهله. حاولت "غادة" أن تصحبه إلى غرفة النوم ولكنه اعتذر بأدب مغلف بحزن القلوب وقهر الرجال واستأذنها أن تتركه؛ ليقضي باقي الليل وحده رغم أنه يحتاج بالفعل إلى كل كلمة تواسيه بها ولكنه كبرياء الرجال أمام أعز الناس.

ورغم البرد القارص، فتح "وجدي" جميع النوافذ في غرفته الفسيحة لعل تيار البرد يصيب خلايا مخه بالانكماش فيتثاءب عقله ويخلد إلى النوم. أضاء جميع الأنوار في الغرفة لعل عقله يصاب بالإجهاد ويترنح بتفكيره ويستجيب للنوم. ورغم أن شهيته قد فقدت الإقبال على أي شيء ورغم الإجهاد الذي يسكن كل خلية في جسده، إلا أن وجدي قرر أن يجري في مكانه وبكل سرعة وقوة لعل قوى جسده تخور بالتوازي مع خلايا مخه المنشغلة وأفكار عقله الثائرة فيتهاوى ويخلد للنوم بعيدا عن كل أفكار القلق والحزن والهم التي تفور في عمق داخله.

ورغم تعرضه لتيارات البرد وضغط الأضواء وإنهاك الجسد، إلا أن النوم لم يأتِ أبدا إلى عيني وجدي وها قد قاربت الساعة على منتصف الليل. طالت الليلة عليه كألف شهر وكأن الفجر قرر أن يعانده ولا يأتي أبد الدهر. ومع طول الساعات انغرست في قلبه سكين الفكر بنصلها الصَّدِئ المغموس بالهم والحزن منتظرا الخبر الذي سيقضي على ما بقي فيه.

ولما طال الانتظار، أغلق "وجدي" هاتفه المحمول وأغلق جميع الأنوار والتي كان قد أضاءها جميعا وعن عمد حتى تنطفئ شعلة الفكر الموقدة في عقله الملتهب. ترك لمبة صغيرة لتعطيه بصيصا من النور ورشفة من الأمان. أغلق التلفاز والراديو وجميع نوافذ الغرف على الشارع العمومي الذي تطل عليه غرفة نومه؛ ليسد جميع منافذ الهمسات لعل النوم يتنازل عن عناده ويدرك طريق مقلتيه المتعبتين.

أغلق عينيه غصبا عن مقلتيه وحاول أن ينام أو يتناوم ولكن النوم أقسم وأبى ألا يعرف طريق مقلتيه. كاد أن يجن، ماذا هو فاعل أمام هذا العصيان والتمرد الجسدي الذي أعلنت عنه كل خلية في أركان جسده المنهك؟ والذي بدا وكأن كل الحواس فيه أبت ألا تنصت إليه وتنام. حاول وحاول ولكن حالة العصيان جعلته يفقد الأمل في النوم مرة أخرى طوال حياته.

كره اليقظة وكره النوم وكره اللحظات التي تمر عليه مرور السنين العجاف. نهض من سريره الناري ليضرب -وبدون وعي- رأسه بجدار غرفته ليدميها ويدمي أفكاره الثائرة فتسيل مع دمائه ويتخلص منها فتنام مقلتاه. وما إن هم بضرب رأسه حتى وقعت عيناه الزائغتان على صورة معلقة لوالده على الحائط وتحتها آية قرآنية خطها والده بأنامله وتحتها صدق الله العظيم مع إمضاء والده "إلى أغلى الناس، إلى ابني وصديقي وَجْدِي" والتاريخ الذي يعود إليه هذا الحدث وهو عشرون عاما إلى الوراء عندما كان في مرحلة الثانوية العامة.

تعجب "وجدي" كيف يرى هذه اللوحة الآن وكأنه يراها ويقرؤها لأول مرة رغم أنها معلقة هنا أمامه ويراها يوميا منذ عشرين عاما؟! شعر وكأن صورة والده في اللوحة مكبر صوت ينادي عليه، وكأن الآية القرآنية نزلت من سبع سماوات على سيدنا محمد منذ أكثر من 14 قرنا خصيصا من أجله. شعر وكأن حروف كلمات الآية مغناطيسا قويا يشد قلبه إليها شدا وقد أُنِيمَت مغناطيسيا جميع خلاياه وجوانحه وهو

بكامل قواه العقلية. سرت في جسده وعقله قشعريرة روحانية جعلت منه طفلا كبيرا يمسك بيد والده ويسير بجواره في شارع المدينة في أمان وحنان.

بدأ يقرأ الآية التي تذكره بتفوقه في الثانوية العامة واللحظة التاريخية التي أهديت له فيها هذه اللوحة. تذكر وعده لوالده يومها بأن يقرأ هذه الآية يوميا وأن يعمل بها. تعجب كيف في ظل مشاغل الحياة أن ينسى وعده تماما؟! فلم يقرأها منذ تلك اللحظة إلا مرات قليلة لا يتذكرها رغم أنه يراها أمام سرير نومه يوميا. نظر مليا إلى الآية وإلى الصورة المعلقة بجوار الآية القرآنية التي يطل فيها والده بابتسامته الملآنة بالرضا وكأنه يعاتبه على تفريطه في قراءة الآية. ملأت عينيه دمعات أبت أن تسقط. قرأ الآية بصوت عال عميق: {وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا} [النساء: 45].

تحولت حالة الفوضى العارمة في عقل وجدي إلى سكينة وغشيته حالة من الرضاء جعلته يهدأ تماما ويجلس على المقعد بجوار سريره وكأنه ولد من جديد بلا هموم ولا أحزان. ابتسم في نفسه وأراح رأسه المتعبة إلى الوراء إلى مقعده وأغمض مقلتيه وراح في سُبات عميق وكأن ملائكة السماء أغمضت عليه عينيه وأراحت له مقلتيه.

ولم تمر دقائق لم يشعر "وجدي" بنفسه فيها حتى استيقظ على نداء "غادة" وهي تفتح عليه الباب بصراخ هيستيري: "قوم يا وجدي،

قوم، المحامي اتصل حالا لأن تليفونك كان مقفولًا، قوم لقد تم الحكم في القضية وأخذت كل حقوقك المسلوبة، قوم وافرح عشان نحتفل".

نهض من كرسيه غير مصدق لحكم القضاء الذي كان قد فقد فيه الأمل تماما بعد أربعة أعوام لم يذق فيها طعم النوم والراحة بعد أن فقد عمله وماله وحقوقه، واتهم زورا وعدوانا بقضية فساد لا يعلم عنها شيئا. فتح "وجدي" عينيه المنهكتين من التعب والسهر والإجهاد على هذا الخبر وتذكر الآية وكأن والده أهداه هذه اللوحة خصيصا ليقرأها ويعي معانيها هذا اليوم.

احتضن "غادة" بحنان الزوج المنتصر والفَرِح وأخذها من يدها الحنونة إلى اللوحة المعلقة على جدار غرفته وقرأ الآية بصوت عال يغشيه إيمان وخشوع بالغ، وزوجته تردد وراءه الآية ودموعها تبلل مقلتيها من شدة الفرحة: {وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا}.

خرجا سويا وقلباهما يرقصان من الفرحة ليوقظا الأولاد من نومهم على هذا الخبر التاريخي. صاح الأولاد وهم يفركون أعينهم غير مصدقين هذا التحول المفاجئ في القضية. ورغم اعتراض زوجته على الخروج بعد منتصف الليل الثائر، إلا أنه أصر وخرج الجميع ليحتفلوا بهذه المناسبة رغم السيول والأمطار التي تهز المدينة لكن سيول الفرحة والانتصار ورعد عودة الحق إلى أهله كانت أقوى من السيول والأمطار.

نظرت "غادة" إليه وهي تراقب الفرحة في عينيه وملامحه متعجبة كيف لفرحة واحدة أن تميت ألف خوف من هم وحزن وتُحيي قلب صاحبها وتهدهد عقله الذي كاد أن يتحول إلى أشلاء؟! لاحظ "وجدي" الدهشة في عيني غادة الدامعتين فقبلها بين عينيها هامسا في أذنيها: "فرحة الحق زوجتي الحبيبة تذيب كل الأحزان".

قضي "وجدي" الليلة بين أحضان زوجته غادة طفلا بريئا والفرحة تملأ عينيه متمنيا هذه المرة ألا تنام مقلتاه ولو طال الليل ألف ليلة وليلة.



بين الأرض والسماء

لم تعجبها الأرض التي قضت على ظهرها عشرين عاما بين المرح، وقليل من الجد وكثير من الهزل بعد أن رأت رائحة الموت في كل مكان. خافت وملأتها مشاعر القلق والحيرة. وبعد تفكير طويل مع نفسها، قررت أن تغير مسار حياتها كأن الوحي هبط عليها فور تخرجها. قررت أن تتحول من فتاة لاهية إلى مخترعة.

وبالفعل تحولت بقدرة القادر من فتاة لاهية إلى فتاة باحثة عن اختراع ينقلها من عالم الأرض لعله يبدد مشاعر الخوف التي تملكتها.

وكأن الوحي هبط عليها مرة أخرى. توصلت بعد عشر سنوات إلى هذا الاختراع الذي تستطيع به الوصول إلى الخيال وتحويله إلى واقع

ملموس وهي قابعة مكانها. تستطيع أن تمشي فوق السحاب وتلمسه وتشرب من مائه وهي في مكانها.

تستطيع أن تغوص في أعماق البحار وتلعب مع الأسماك وتغازلها وهي قابعة في مكانها.

اختراع عجيب يحول كل خيال إلى واقع ملموس فقط لصاحبه دون الآخرين.

فرحت بالاختراع جدا، يكفي أنه سوف يساعدها على تحقيق رغبتها الدفينة وهي العيش بعيدا عن الأرض. وهنا قررت أن تعيش فوق سطح القمر ولكنها شعرت بوحدة قاسية وظلمة عاتية بعد أن اكتشفت أنه يعكس الضياء للآخرين وليس لنفسه.

حينئذ قررت وعلى عجل أن ترحل عن القمر وتعيش بجوار الشمس وتنعم بأشعتها وأنوارها. وما إن اقتربت من دائرة الشمس حتى أصيبت بهلع من هول ما رأت وكاد أن يذوب أديمها من حرارة أشعتها الحارقة.

قررت أن تعيش في أعماق البحار لكنها اكتشفت أن الأسماك هجرتها، وتملكها الخوف منها ومن صوت المياه في الأعماق الذي أرادها وحيدة.

قررت أن تهجر البحار وتعيش في الهواء بين السماء والأرض لكنها سرعان ما اكتشفت كم الأقاويل من الغيبة والنميمة والبهتان التي تصاعدت من ألسنة الناس إلى طبقات الهواء العليا فشعرت بخيبة أمل كبيرة وبتلوث فكري كاد أن يصيبها بالجنون من هول ما سمعت.

وبعد تفكير طويل قررت أن تعيش في عقول البشر، مرة في عقل (سوبر)، ومرة في عقل جامد، ومرة في عقل شيخ، ومرة في عقل طفل.

ولكنها سرعان ما اكتشفت أن مجرد الاقتراب من فوهة العقول بما فيها من وهج ونار الصراعات أشد هولا من الاقتراب من فوهة الشمس.

وأخيرا قررت أن تعيش في قلوب الناس الطيبين لكنها سرعان ما اكتشفت كم أن جدرانها دائمة التمزق، وكم أنها تحتاج إلى ترميم كل طوبة فيها كل دقيقة وكل ثانية.

وبعد أن أعيتها الحيل، قررت وبسرعة أن تعود إلى الأرض التي رحلت عنها والتي اشتاقت إليها أيما اشتياق. وفي طريقها للعودة، شعرت وأن كل خطوة في طريقها كعمرها الثلاثين عاما، فقد اشتاقت إلى كل شيء رحلت عنه حيًّا أو جمادًا.

اشتاقت إلى موضع قدميها، إلى متكئ رأسها، إلى عبير ثري الأرض ولو تمشي عليها حافية. اشتاقت إلى نسمة هواء تخرج من رئات أشجار الأرض، إلى ضي القمر ولو في ظلمة ليل.

اشتاقت إلى دفء شعاع شمس في يوم شتاء بارد. اشتاقت إلى الخلاف مع الناس والاختلاف عن الأصدقاء.

اشتاقت إلى المعارك الكلامية وإلى هاتي وهات. اشتاقت إلى زهور الربيع وإلى أوراق الخريف وإلى رذاذ المطر.



اشتاقت أن تري حبّات العرق على جبين عامل وإلى القلم في يد كاتب ومفكر ومدرس. اشتاقت أن تعيش بين الناس. اشتاقت إلى كل الواقع ولو أليما وقاسيا وعنيفا واشتاقت إلى كل الذكريات.

وفي طريقها للعودة للأرض، أدركت أن أديمها وقلبها وعقلها وكل جوارحها وجوانحها من وإلى الأرض. أدركت أنها لا تحيا بدون الأرض التي جاءت وتربت فيها ولو كانت وحلا.

أدركت أن الأرض هي موطن الروح وسكن القلب وحياة الجسد وقبره. أدركت أن الأرض هي الوطن ولو امتلأ بدماء الأهل والأصدقاء وتألم من كيد الأعداء.



جبال الظنون

ومع غليان قِدر النقاش الذي بدأ هادئا، ثم ساخنا، والآن يغلي على نار النقاش الحامية، انتفض وجدي واقفا والغضب يختلط بحبات العرق التي تسيل على وجهه الذي تحول إلى شعلة موقد: انتهت الحديث يا فارس بيننا عند هذا الحد، وانتهى العلاقة بلا رجعة.

حاولت أثنيك عن موقفك العدائي ضدي على طول الخط لكنك لا تري، ولا تقرأ، ولا تسمع إلا رأيك، ولا تعتبر إلا موقفك. لم أكن أظن قلبك قد تحول إلى فحم أسود هكذا، وعقلك نارا تلتهم كل ما عداها هكذا.

نظر فارس إلى وجدي غير مصدق لهذا الرد العنيف من صديق العمر ورفيق الكفاح في الدرب. نظر إليه بصمت وهو ينعته بكل تلك الصفات التي لو توفرت فيه لكان رئيس قطاع الشياطين العابثة بين الأصدقاء.

ظل جالسا في مكانه على الكرسي الذي شهد معارك كلامية طاحنة بينهما لتعضيد مواقف فارس في معترك دائرة العمل الكبيرة والمهمة التي أُوكلت إليه إدارتها منذ عام تقريبا. الكرسي بمنزل صديقه وجدي الذي تعود فارس أن يلجأ إليه كلما هبط عليه نيزك من سماء مشكلات العمل التي لا تنتهي.

ظل فارس ناظرا إليه غير مصدق سيل الاتهامات دون أن يرد لعله يهدأ ويعود إلى ذاته، ولكن ظل وجدي يزيد من لهيب الاتهامات في وجه حتى كادت الدمعات أن تفقد توازنها وتهبط بكبريائها من سماء مقلتيه.

وهنا وقف فارس وقرر أن يدافع عن نفسه بالحجة والبرهان، لكن فات الأوان فقد غلي التنور، وفار القدر، وأخرج كل ما فيه دفعة واحدة في وجه فارس الذي فوجئ بوجدي يطرده من بيته شر طرده، وهو لا يكاد يصدق عينيه وأذنيه.

لم يملك فارس سوي جر أذيال الصداقة وراءه وهو يترك البيت الذي كان يقلع منه ويهبط فيه كلما بحث عن هدوء النفس وإجابات لكل المعضلات. خرج والحسرة تعتصر قلبه، وفكره يموت في عقله من أثر هذا اللقاء الذي قطع روحه إلى أشلاء.

مر أسبوع على هذه الحادثة المروعة التي قتلتها سيارة الصداقة تحت عجلات الخلاف التي كان يقودها وجدي في غضب عارم.

ومع أنه دهس صديقه في بيته، وأظهر بعض من مكنون الغيرة التي كان يشعر بها أحيانا تجاه المنصب الرفيع الذي تقلده رفيق العمر

وهو مازال واقفا مكانه، إلا أن صقيع الندم تملكه وتمني لو يتصل عليه فارس ليحتضن حديثه ويدعوه لبيته مرة أخرى أو ليذهب هو إليه ليطلب الصفح والعفو عما بدا منه. قرر ألا ينتظر مبادرة صديقة، فليبادر هو نفسه كما بادر في الخصام.

وقبل أن يرفع سماعة التليفون ليتصل بصديق العمر بعد أسبوع من الخصام، دق جرس الباب ليعلن عن ضيف قادم. هرول يجري نحو الباب متمنيا أن يكون فارس. قرر أن يضمه في صدره ويقبل رأسه ووجنتيه فور أن يراه حتى قبل أن يلقي فارس السلام.

وعلى غير عادته في التحري عن الطارق، فتح وجدي الباب سريعا، ولكنه وجد شخصا آخر قلما زاره في بيته. هبط قلب وجدي الذي كاد من لحظات أن يخرج من صدره في لهفة على صديقه، ورحب بالقادم الذي هو أيضا من دائرة الأصدقاء ولكن أبدا ليس كفارس.

وقبل أن يسأل وجدي الضيف بأسلوب غير مباشر عن سبب الزيارة هذا المساء، تبرع الضيف بنفسه ببث نشرة الأخبار على أذنيه بلحن تيقن أن كل أذن تنصت إليه.

وصف له صوتا وصورة كيف أنه كان محقا في طرد فارس من بيته قبل أن يطرده هو من العمل بفضيحة. وكيف أن فارس يكيد له كل يوم دون أن يعلم حتى يضيق الخناق عليه فيتخلص منه مرة واحدة.

كيف؟ وكيف؟ وكيف؟ وظل الضيف يوصف لوجدي كل ما يثبت أن فارس كان نذلا. وكان ذئبا جائعا، ونمرا مفترسا أراد أن يلتهم أعز

الأصدقاء بعد أن علا نجمه وسطع في سماء المناصب فأراد أن يمحو كل من يقف ولو في آخر الطريق.

تساءل وجدي والغضب بدأ يسري في جوفه وعقله، وكيف علمت بذلك، ومتي حدث كل ذلك وأنا لا أدري.

علمت بذلك يا صديقي من مصادر موثوقة ومقربة من فارس، فهناك من يحبه وهناك من يكرهه. وقد حدث ذلك أمس بعد أن أفصح فارس في لقاء خاص مع أحد مساعديه المقربين وأنه فعل ذلك عمدا لتوقعه أن يحلف اليمين لمنصب رفيع غدًا.

تعجب وجدي والغضب يقذف الشرر من عينيه لتعود حالة غضبه على فارس من جديد، أكل هذا حدث أمس فقط؟! اللعنة عليه.

نعم صديقي، علمنا بهذا الاعتراف منذ أمس، ولكن المكائد ضدك بدأت منذ شهور ولكن في الخفاء.

أيعقل هذا وأنا الذي كنت على وشك الاتصال به الآن للاعتذار؟ وطلب الصفح ودعوته لبيتي. آه من هذا الوغد الحقير، الذي خالت على نياته وحقيقته طوال سنوات العمر الماضية. أشكرك يا صديقي على إخلاصك وحرصك على. فلنحتسِ شيئا سويا ولنعلن عن تعاوننا لمصلحة كل منا. وغدا سوف أنتقم من فارس أشد نقمة.

لا تتعجل في الانتقام يا صديقي، خاصة أني علمت أيضا أن فارس لم يأت العمل منذ أربعة أيام، والشائعة تقول أنه يستعد لحلف اليمين

ليتفاجأ به الجميع. وأنا أستأذن؛ لأني على عجل لإنهاء زيارات مماثلة لكل من هو في خطر من نار فارس.

انصرف الضيف بهدوء، تاركا وجدي ونار الغضب تفور في صدره على فارس واليوم الذي عرفه فيه. لم يستطع الانتظار حتى الصباح، وبلا تردد رفع سماعة التليفون يطلب فارس، ليكيل له كل أنواع التهم والشتائم والاستهزاء؛ وليقضي على بقايا الصداقة التي انتهكت حرمتها منذ أسبوع والآن تحتضر بين يديه.

ردت زوجة فارس لتخبر وجدي بصوت مختنق بأنه لا يستطيع الحديث لأنه في غرفة الإنعاش منذ أربعة أيام، وهو الآن يحتضر بين الحياة والموت.

شهق وجدي شهقة كادت أن تقضي عليه، ولماذا لم تخبريني وقتها حتى أكون بجانبه.

- فارس أوصاني ألا أخبر أحد، وأوصاني أيضا ألا أخبرك إلا إذا توفاه الله أو أنت اتصلت.

بكي وجدي كالطفل، وجري مهرولا ليري صديق العمر بعد أن دهسه منذ أسبوع بعجلات غضبه، وشكه في نيات الخلاف فأرداه صريعا بين الحياة والموت. والآن فقط أدرك وجدي أنه أهال جبال الظنون على رأس صديق العمر.



سراب الأشواق

برفق شديد، أمسك بيديها النحيلتين كساق شجرة اللبلاب وركع بشفتيه يقبلها بحنان بالغ. رفع ذراعيها إلى صدره الواسع باتساع السماء ليحتضن تيار الشوق والحنين الذي يجري في عروق كفيها في كبرياء وخجل.

ولأنه لم يرها منذ ثمانية أعوام، أقبل على كفيها بنهم يصب فيهما قبلات أشواقه الملتهبة في ماء الحب التي تجري في خطوط الزمن العتيق براحتيها.

هي افتقدت ملامحه التي مازالت تشرق بطفولة تطل من نظرات عينيه اللامعتين وتجري وتلهو تحت أديم وجنتيه بشقاوة الشباب المشتعل.

ورغم الثماني سنوات التي مرت على فراقه كثمانية عقود عجاف، إلا أنها كانت تراه كل صباح ومساء وهو يلهو أمامها طفل هادئ الطباع

كزهرة البنفسج التي تعشق أوراقها البيضاء لأنها من لون بشرة وجنتيه. نظرت في عينية فرأت عينيها تترقرق في مقلتيه بدمعات بين فرحة وبكاء.

نظر في عينيه فرأي فيهما العالم أجمع يدنو منه ويضحك ويلوح له بالترحاب والأشواق والسلامات وبعلامات النصر.

لما شعر بالسعادة تقطر من وجهها البريء، حملها بين ذراعيه كطفلته ابنة العامين ليزيد من سعادتها. طاف بها في حجرته التي عكفت هي على إعدادها قبل مجيئه طوال الشهر الماضي بكل ما يذكره بمراحل الطفولة والصبا والشباب وبكل ما يجذبه ليبقي بجانبها بقية العمر ويكف عن السفر والترحال.

شعرت بين يديه بالأمان وبأنه هو الذي أتي بها إلى الحياة من رحم الزمن والغربة القاسية.

هو شعر بأنفاسها تهدأ بين ذراعيه فأخذها بحنان مخلوط بشفقة غروب الزمن إلى سريره بين الذكريات التي كانت قد بعثرتها عليه؛ ليلهو بها قبل نومه كما كان يحب أن يفعل دائما.

استسلمت للنوم بين ذراعيه ولم تدري بنفسها إلا وهي تنام بهدوء وعمق بعد أن حرمها الفراق والبعاد من النوم ثمانية أعوام كاملة.

ترك ذراعه يحيط بخصرها وذراعه الآخر فوق صدرها ونام وهو يلهو بذكريات الطفولة التي كانت ولكن عقله منشغل ومشتعل بمزيد من تحقيق الإنجازات في بلاد الغربة لعدة سنوات أخرى.



اللحظة الفاصلة

نظرت إليه بعينيها الدامعتين، ليس بدموع الحزن، ولكن بدموع قطراتها من شوق وحنين واشتياق ولوعة ساخنة تتمني أن تسكبها بين شفتيه. أمسكت بيديها كفيه، واحتضنته بصدرها الذي هده ضربات قلبها المشتاق.

احتضنها بحنان واحتواها بين ذراعيه، وظلا هكذا يذوبان في بحار الحب، هي على صدره وهو يتحسس خصلات شعرها الذي يتمني أن يُقبل كل خصلة فيه.

تحولت لحظة اللقاء بعد غياب طال تسعة أشهر إلى ملحمة عشق، كالساق المورقة التي نمت لتوها على سطح الأرض من جذرها.

هو الجِذر وهي الساق المورقة، في كل ورقة فيها ينبض قلبها الأخضر. تمنّت لو تستمر اللحظة طوال العمر، ولكنها فوجئت به يرفع رأسها بين راحتيه ناظرا إلى عينيها بحنان وحب وشوق، قبل جبينها ووجنتيها وشفتيها بنهم ورعشة ليودعها لتسعة أشهر أخرى.

سالت الدموع من عينيها، ولكن هذه المرة كانت الدموع مملوءة بقطرات الحزن والخوف من الرحيل اللانهائي.

لم تنطق من رهبة الرحيل، وتركت يديها تتسلل من يديه وكأنها تنزع روحها من روحه وهو يودعها ملوحا بكفه، وكأنها الرحيل أصبح من طقوس كل لقاء. ظلت تراقب خطواته المسرعة حتى اختفي بين المارة، ليعلن الزمن عن آخر رحيل بعد آخر لقاء.

سحبت أنفاسها وجسدها وروحها من المكان في هدوء، وكأنها منومة بمغناطيس الحب والفراق، وعادت إلى بيتها تنتظر ككل مرة، لعله يعود لترتشف منه مشاعر اللقاء والعشق والحنين.

وفجأة تجمدت الدموع في عينيها عندما سمعت أم ترد على طفلها وهي تجري مهرولة في الطريق، يا بُنَى كفي أسئلة عنه، من تعود على الرحيل أبدا لن يعود. وفي تلك اللحظة، كفكفت دموعها وتماسكت وكست ملامحها جدية وصرامة، وكأنها تعاقب ملامحها على تهاونها في التعبير عن مشاعرها كل مرة يعود ويرحل.

مشت في نفس الشارع الذي تعودت أن تودعه فيه كل مرة وتعود منكسرة. ولكنها قد تغيرت، فقد زال الانكسار عن الجذر وأصبح ساقها

مستقيما قويا جامدا، وكأنه لم يعرف يوما الانكسار. تعجبت من قدرتها على التغيير عندما أرادت!

ابتسمت في نفسها بسعادة طغت على ملامحها، وعادت لبيتها لتلقي بنتيجة الحائط في سلة المهملات، فهي لم تعد في حاجة لتعد الأيام والأسابيع والشهور حتى يعود. ضحكت ضحكة عالية حركت الدماء في عروقها وكأنها ولدت اليوم من جديد في هذه اللحظة الفاصلة.



أحلام عقل صاخب

بعد عمل يوم طويل ملئ بالمتناقضات، يوم تزين نهاره بصخب العقول الضاربة والقلوب الحالمة على جانب من مدينة أحلامي، فجأة وأنا في طريقي إلى سكني محملا بكل أحداث اليوم الصاخبة انتفضت عيناي على السماء وقد كشطت وهي تطوي طبقاتها حتى تحولت كحزمة من الورق وقعت بين يدي وتركت الفضاء عاريا إلا من أقمار وكواكب.

هربت بعيدا فانكدرت وتدلت من أفلاكها وانتحرت حزنا على غطائها السماوي وتركت الشمس معلقة في الفضاء تضخ أشعتها ليل كون قررت سماؤه أن تعتزل وظيفتها الكبرى كغطاء جمالي وحيوي يحمي بشرة الأرض من سرطان الأشعة الكونية...

ورحت أجري يمينا وشمالا لعلي أجد طريقي إلى مسكني الذي ظننته قريبا، إلا أني رأيت الجبال الشاهقة تسير حوالي وأنا أهرب من صدامها والأرض تتمزق تحتي. ولم تمض إلا لحظات حتى وجدت الشمس وقد سحبت أشعتها وأطفأت شعلتها وتكورت وتلاشت من الكون الفسيح الذي أصبح ظلمة في ظلمات...

هرولت وأنا لا أتبين كفي ولا أدري طريقي لعلي أجد ضوءا يخترق تلك الظلمات. ففرح قلبي عندما رأيت ضياء يملا الكون يتدلى من أعمدة من نور.

فما وجدتها إلا مياه البحر وقد سجرت ترتفع كالجبال المتصارعة وذرات مياهها كتل من نيران حامية تأكل الهواء وتبتلعه تاركة الناس حولي بلا أنفاس تتهاوي صرعي وكأنهم جذوع نخل خاوية....

الآن أصبحت أنا الخوف والقلق والحيرة واللاشيء فهرولت يمينا وشمالا لعلي أجد ونيسا أخاف أو أموت معه في هذه الوحدة القاتلة والكون المدمر.

فلما سمعت صخبا هرولت أتلمس حثيثة فرأيت هناك الحياة مازالت تدب في وجوه الناس على الجانب الآخر من مدينتي، مدينة الأحلام وفيها الناس غرقي في اللذات ومتع الحياة. وعبثا حاولت أن أقص حكايتي على الجانب الآخر الذي مات على التو من مدينتي، إلا أن صوتي ذهب أدراج الرياح هباء مع أنفاس الناس الصاخبة وحركة العربات الفارهة وعلو البنايات العالية وهرولة الأجساد المتعجلة.

وعبثا حاولت أن أحذر من آلات ولكن رماني الناس بنظرات الإشفاق والسخرية، حينئذ قررت أن أعود هاربا إلى الجانب الآخر من مدينتي لأموت هناك ولو كنت وحيدا، ولكني صحوت على رنين منبه الساعة السادسة.



حُلم آخر لحظة

"ليس هناك أشد من وحدة تَخَلى فيها عنك الأحبة وتخلى عنك فيها حتى حلمك".

تحولت عينيه إلى نهر من الدموع الساخنة وهو لا يدري من أن أين تأتي أمواج الدمع هذه التي لا تتوقف. أغمض عينيه المتعبتين لعل شلال الدموع يتوقف ويرحم مقلتيه.

تعجب كيف للإنسان أن يغمض عينيه عن العالم حتى لا يري شيئا إلا ظلمة تنسيه أحزانه فيفاجأ بأن بداخله عالم مرئي أكبر اتساعا وأكثر صخبا من العالم الخارجي حواليه. فإذا كان يستطيع الهرب من العالم الخارجي الذي يؤرق عيناه، فكيف له أن يهرب من هذا العالم الذي يكمن

بداخله مؤرقا قلبه قبل عقله. عصرت قلبه الهموم ومزقته إربا إربا وشعر بالغربة الموحشة في هذا العالم وبالوحدة المتوحشة داخل جوانحه.

تمني أن يغادر هذا المكان والزمان وللأبد، ولكنه مازال يحلم بفرصة بحياة حلوة قد تكون تائهة منه هنا أو هناك.

وفي وسط هذا الصراع بينه وبين العالم الداخلي والخارجي، وفي ظلمة المكان حواليه شعر وأن قنوات الدمع بمقلتيه قد هدأت وأوقفت أبوابها. تدفق إلى دمه زخات من هرمون النوم الميلاتونين وكأنه المورفين قبل عملية جراحية كبرى.

لم تمض دقائق حتى غاص في نوبة نوم كان يتمناها منذ أسابيع طوال كان السهاد فيها هو نصيبه حتى الصباح.

عاش في نومه أحلام الطفولة والصبا والشباب التي كان قد أوشك أن ينساها إلى الأبد تحت تأثير ضربات معاول الكهولة من كل صوب ونحو. شعر وكأنه وُلد من جديد.

أمه تنظر إليه بحنان وتضمه إلى صدرها الطيب المتسع للعالم كله. تداعب خصلات شعره الخشنة كما كانت تفعل وهو غض صغير فتجعل منه أميرا بل ملكا على عرش بيتها. يرتمي في حضنها فلا يري إلا عينيها المبتسمتين ولا يسمع إلا دقات قلبها الحنون فيغفو على حجرها كالرضيع.

يصحو من غفوته حينما يسمع صوت والده. يقف يهش ويبتسم لوالده، هذا الرجل الذي يمثل له عضلات العالم أجمع حتى وهو منهك

القوي. ينظر إليه فخورا وهو عائد من عمله في يوم حار مُسرع الخُطي والعرق يتصبب من جبينه قاصدا صحن الدار ليستريح وتحت إبطيه ما طاب ولذ من فاكهة طازجة تسيل اللعاب.

يحمل عن أبوه حُلو اليوم ويجري نحو أختيه وهما تسابقان الزمن مع أمه في تحضير وجبة الغذاء للأب العائد وأسرته. يجري بينهم ليستمتع بشم رائحة الطعام الساخن ولا يهدأ حتى يخطف بعض لقيمات قبل أن يلتف الجميع حول المائدة المباركة.

وهكذا وجد نفسه في حلم رائع وسط جو من المرح والسعادة العائلية التي حُرم منها منذ وفاة والديه وهجرة شقيقتيه مع زوجيهما منذ سنوات طوال. الغريب أنه أدرك أن يحلم وأنه بعيد عن واقع دنياه مع أنه مازال نائما في سريره وكأنه حلم اليقظة.

كلما حلت عليه نوبة الصحيان من حُلمه، ابتسمت له أمه ولوح له أبوه وتمنيا أن يبقي معهما ولا يرحل. تعجب كيف يكون هذا؟! كيف تتصارع اليقظة مع أحداث الأحلام.

ورغم كرهه لواقعه المؤلم، إلا أنه أراد أن يفيق ليستشعر حلاوة الحلم ويستبشر بأحداثه السعيدة.

وقبل أن يفيق من حُلمه ليعود إلى واقعه وإلى فرصة أخرى في الحياة قد يجد فيها طاقة نور في هذا النفق المظلم، بكي الزمن وبكي المكان وبكي الوحدة وبكي الحاضر وبكي المستقبل الذي لا يعرف له

عنوان سوي أنه ينتظر مزيدا من أيام تُشرق في وحدة وتَنسي وتنام في وحدة.

تاه بين الحلم وبين اليقظة وتحير أيبقي في حلم قد لا ينتهي؟ أم واقع قد ينتهي؟ وقبل أن يقرر شعر بيد بعرض السماء تحمله إلى عالم لا ينتهي. ابتسم في نفسه وترك عينيه مغمضتين عن العالم الخارجي ومعلقتين في عالمه الداخلي على ابتسامة والديه في راحة إلى الأبد.



ذبحة مشاعر

بعدما أنهى طقوس الصباح من وضوء وصلاة ثم الفطور على عجل، ارتدى حُلّته الأنيقة وحذاءه اللامع الذي يليق بسيارة العمل الفارهة. وكان آخر الطقوس الصباحية النظر في المرآة ليبتسم لنفسه إعجابا بها قبل أن يبدأ رحلة اليوم التي لا تنتهي عادة قبل المساء.

ابتسم في المرآة لعينيه الحادتين وملامحه القوية حتى اطمأن أن ملامحه قد امتلأت هيبة وعظمة التي دائما ما يبحث عنها بداخله لزوم المنصب. تأكد من هيبة ملامحه رغم طيبة قلبه المرهفة التي لا يعرفها عنه إلا المقربون ولكنه نسيها أو تنساها عمدا تحت وطأة كبرياء منصبه الذي تعود عليه وتعود هو عليه وكأنهما وجهان لعملة واحده.

اطمأن لملامحه القوية مبتسما لها رغم شعوره بالوهن في أعماق عينيه ورفرفة في أجنحة قلبه المعلق في صدره على خيط رفيع قد ينقطع في أي لحظة مفاجئة غير محسوبة.

هَمّ بفتح الباب ليخرج بسرعة فالسائق ينتظره على أحر من الجَمر ليقوده إلى ميعاد مهم مع مسئول كبير قد يكون فيه بشرى كبرى لتقلد منصب أكبر يرغبه ويعمل له منذ زمن.

وقبل أن يهم بفتح الباب تذكر أنه نسي أن يأخذ الدواء في المساء وكذلك في هذا الصباح. الدواء الذي لا يستطيع أن يُكمل اليوم بدونه. هرول نحو حجرته ولكنه لم يجد علبة الدواء.

شعر أن خلايا جسده وخاصة قلبه تنتفض غضبا وتنتظره على أحر من الجمر أن يأخذ دواءها، حتى تهدأ وترتاح قبل أن تثور ثم تخور قواها وتدخل في غيبوبة احتجاجا على هذا الإهمال من صاحبها رغم اهتمامه بكل صغيرة وكبيرة في عمله. غيبوبة قد لا تفيق منها خلاياه ولن تصمد طويلا ولن تهتم طالما أن صاحبها غير مهتم بشئون ذاته وشئون خلاياه.

وكأنه شعر بالحوار الدائر الآن في أعماق نفسه مع خلاياه ومدى حاجتها إلى الدواء، كاد عقله أن يُجن من الصدمة. فكيف نسي في زحمة العمل وقسوة انشغالاته أن يشتري عُلبة الدواء والتي تعود أن تقوم زوجته بشرائه. ولكنها لم تفعل هذه المرة لتمسكها بإجازتها السنوية هي والأولاد ولو بدونه.

ازدادت رفرفة أجنحة قلبه المتعب الذي لا يعلم عنها أحد في عمله؛ خوفا على منصبه وعلى طموحه غير المحدود. ارتعشت راحته وهو

يمسك بالموبايل وارتعشت أنامله وهو يطلب السائق؛ لينقذه ويشتري له عُلبة الدواء. لم يسأل السائق لمن هذا الدواء فقد ظن أنه لأحد ما غيره من أسرته أو أقاربه.

لم يعلم السائق شيئا عن أهمية الدواء ولكنه هرول نحو أقرب صيدلية ليشتري العلبة قبل أن يأتي رئيسه. أحضر الدواء وجرى بالسيارة في المكان الذي تعود الانتظار فيه لرئيسه ولكنه لم يجده.

تعجب السائق من تأخر رئيسه فطلبه على استحياء ليطمئن عليه فلم يرد حتى بعد ثلاث محاولات من الاتصال. تحير في الأمر وبعد تردد قرر أن يدق باب المنزل ليطمئن عليه بنفسه.

فوجئ السائق بباب المنزل مواربا ولا صوت بالداخل لكبير أو صغير في الصالة أو الحجرات كما اعتاد أن يسمع عندما يأتي ليأخذ بعض أغراض العمل. نادى على رئيسه مرات فلم يرد. استجمع شجاعته ورفع صوته بالنداء فلم يرد أحد.

بحث في كل مكان حتى فوجئ برئيسه ملقى بجوار سريره على الأرض والموبايل بيده ولكن في غيبوبة تامة وهو يحاول الاتصال بزوجته. انتابت السائق موجات من القلق والرعب لوجوده وحده وهو لا يدري ماذا هو فاعل في هذه الكارثة. وعلى الفور استجمع هدوءه وقام بطلب مدير مكتب رئيسه وفي نفس الوقت الإسعاف لعلها تفعل شيئا لإنقاذه.

تعجب الرجل كيف لهذا المنصب وهذا الكبرياء وهذه العظمة أن تتمدد على الأرض بجوار سريرها في هذا المنظر الذي يبعث بالرأفة والشفقة على صاحبه؟!

كيف للمخ والعقل الذي يعطي الأوامر والنواهي أن ينام بلا حراك هكذا؟! ولا يستطيع أن يفعل شيئا لصاحبه بالرغم من فعله آلاف الأشياء للآخرين.

كيف يتحول جبروت الإنسان إلى مجرد جثة معبأة في بذلة أنيقة تطل منها رأس تحوي مخا لا يدري صاحبه بغيبوبة.

كادت دموع الرجل تتساقط لولا هول الموقف الذي جعل كل خلية فيه تستند على زميلاتها لتتماسك قبل أن ينهار من رؤية رئيسه في العمل بهذا الشكل ولأول مرة.

لم تمض الربع الساعة حتى وصلت الإسعاف مسرعة ليجد الطبيب علبة الدواء بجوار الجسد الممدد فتوقعوا سبب الغيبوبة اللعينة التي أصابت الرجل الهام. وعلى الفور تم نقل الرجل إلى أقرب مستشفى تخصصي لعمل اللازم نحو إنقاذه من هذه الوعكة الصحية.

لم تمض دقائق من وصوله المستشفى حتى وصل مدير مكتبه ورؤساء القطاعات والمدراء للاطمئنان عليه ولكنهم لم يستطيعوا مقابلته لوجوده في العناية المركزة تحت أوامر طبية مشددة لمنع أي زيارات.

تعجب الجميع مما حدث فهذه أول مرة تحدث وعكة صحية كبيرة لرئيسهم الذي فجأة منع المرض مثولهم أمامه كما تعودوا كل صباح لتقديم التقارير وتلقي التوجيهات.

انزعج البعض من هذه الوعكة التي إن طالت فسوف تقضي على أحلامهم وطموحاتهم المعلقة بطرف لسانه وقلمه في الحصول على

الامتيازات صغيرها وكبيرها بما فيها المناصب العليا. وانفرجت أسارير قلوب بعضهم وكتموا فرحة تمنوا لو يعلنوا عنها ومعها التمني بأن تطول الوعكة وتنتهي معها صلاحية رئيسهم حتى يفسح الطريق والسلم لهم ليصعدوا عليه ولو صعدت روحه معهم.

كتم آخرون دمعات في مآقيهم على حال رئيسهم الذي كان يملأ الدنيا بأوامره ونواهيه كمن ملك الدنيا وما فيها ثم فقد ما ملكه مرة واحدة. وقف الجميع وراء الحاجز الزجاجي ينظرون إلى رئيسهم الممدد على سريره ولا يدري هو بهم ولا بأفكارهم المتصارعة.

ومن حسن الحظ أن المريض في غيبوبته لا يدرك إيماءات الملامح وإلا أصبح كالسجين الذي يُجلد في صمت بسبب الانقلابات النفسية لما حوله.

انتهت مراسم الزيارة ورحل الجميع ململمين معهم مشاعرهم أيا كانت على رئيسهم في العمل وبقي هو وحيدا وراء زجاج غرفة العناية المركزة في عالم الغيبوبة وعالم الخراطيم المملوءة بالأدوية وغازات التنفس وسوائل التغذية ووسائل المراقبة.

لم يبقَ بجانبه سوى سائقه الذي قرر بين طيات نفسه وإدارة المستشفى أنه ملازم لرئيسه حتى تأتي زوجته وأولاده من السفر. تعامل الأطباء مع المريض بحرص واهتمام شديدين فهو شخصية مهمة ولكن الحرص والاهتمام لن يغير من الدواء ولن يغير من قضاء الله وقدره.

لم تمض ساعات معدودة حتى وصلت الزوجة ومعها الأولاد والتي فوجئت بالوضع الصحي السيئ لزوجها وسط غابة من باقات الورد من مئات الشخصيات والمؤسسات التي كتب عليها في سطور قليلة وعبارات مقتضبة الشفاء العاجل لزوجها المسكين.

هرولت نحو زوجها وقلبها منفطر عليه وولداها الوحيدان بجوارها وقلباهما معلقان في صدريهما على حبال من الخوف على فقد عائلهم وسندهم الكبير في الواقع والخيال.

لم يستطيعوا فعل شيء سوى الدعاء له ببعض الأدعية المحفوظة وإسقاط بعض الدمعات الإنسانية في مثل هذه المواقف.

نظرت الزوجة بامتنان إلى السائق الكريم بعد أن علمت منه ما حدث هذا الصباح لزوجها وشكرته وطلبت منه الانصراف ليرتاح. حاول البقاء بجواره وجوارها ولكنها أصرت فقد فعل الكثير اليوم.

نظرت الزوجة إلى غابة الورد المتراصة هنا وهناك والتي من كثرتها قد تلتهم كل أكسجين الحياة في الغرفة المجاورة لزوجها. ولأنها تعرف معظم هذه الشخصيات، كادت أن تشم في كل باقة ورد رائحة الشماتة أو العطف أو التشفي أو اللا مبالاة أو الرسميات أو الصداقة الحقة.

أرادت أن تُلقي بهذا الورد في سلة المهملات أو تمنحه للمستشفى لتزين به الطرقات ولكن الذوق والرسميات والبروتوكولات منعتها من ذلك.

ألقت رأسها على الكرسي ليس لترتاح من عناء السفر أو من التفكير في أمر زوجها الذي سوف تؤثر في منصبه هذه الوعكة الصحية الكبيرة، ولكن لتعود بنفسها وأسرتها بقطار الأحداث إلى الماضي البعيد والقريب. فكم نصحت زوجها أن يخفف من أعباء العمل في السنوات الماضية وكم نصحته ألا يكون قاسيا مع الكثيرين.

كيف يعدل في الحقوق والواجبات، وكيف يزن قراراته بميزان العدل والرحمة. وجرى القطار سريعا بها إلى الوراء حتى لحظة اللقاء الأول عندما كان شابا بسيطا ثم لحظة خطوبتها ثم الزواج ثم رحلة العمر مع الأولاد والعمل وضغوطه وطموحاته.

وفي نفس اللحظة عاد بها القطار سريعا إلى الحاضر وإلى محطة النهاية التي تجلس فيها الآن منتظرة استجابة الله لدعائها حتى لا تفقد من تعودت على وجوده وطيبته رغم قسوته فهو في البيت الشيء وضده.

انهالت الاتصالات عليها وعلى أولادها للاطمئنان على الرجل حتى كادت أن يصيبها الإعياء من كثرة الكلام ومما تشعر به الآن فقررت أن تغلق التليفون للتفرغ لزوجها ونفسها وهمومها.

نظرت إلى زوجها من وراء الجدار الزجاجي الحاجز فانهمرت الدموع من مقلتيها مشفقة عليه متمنية أن تراه واقفا على قدميه مرة أخرى ولو أخذوا منه المنصب والجاه والمال والسلطان. أرادت أن تحدثه ولكنه لا يسمعها ولا يراها وقد لا يشعر بها.

أصبح في عالم آخر غير عالم الحكايات والمناصب والقرارات وحتى الزوجة والأولاد، عالم لا يشعر به الآن سواه.

حضر طاقم الأطباء فهرولت تسألهم عن حقيقة حالته فأخبروها أن الحالة ستطول قبل الشفاء وقد لا يكتمل الشفاء ويترك آثارا على النطق والرؤية والحركة.

أخبروها أن هناك تقريرا طبيا سوف يتم إرساله للمؤسسة التي يقودها زوجها بناء على طلب وصلهم ليكونوا على بينة بحالة الرئيس ومستقبل المؤسسة.

كادت أن تنهار فلو علم زوجها ذلك حتى بعد أن يفيق لراح في ألف غيبوبة. أشفقت على نفسها وزوجها وأولادها وبدأت تتهيأ نفسيا لكل ما هو آت جراء هذا التقرير.

فتحت وسائل التواصل الاجتماعي لترى ماذا يدور هناك، ففوجئت بأن خبر مرض زوجها قد غطى وسائل الإعلام وأصبح منتشرا في كل مكان كانتشار النار في الهشيم. واغرورقت عيناها بالدموع وهي تقرأ بعض الأخبار الكاذبة بأن الرجل في سبيله للرحيل، وأخبار أخرى أنه قد مات وأخبار أخرى تتنبأ بترشيحات قيادات جديدة بديلا عن زوجها ومن أبرز الأسماء نائب زوجها.

كادت أن تتقيأ مما قرأته وأرادت هذه المرة أن تلقي الورد في سلة المهملات، وأن تمنع الزيارات ولكنها لم تستطع فأحيانا تغلبنا التقاليد والأصول أن نبوح بمشاعر قلوبنا وأفعال قلوبنا. كم تشتاق الآن

للخروج بزوجها سليما وتعود إلى بيتها؛ لتشعر بالراحة حتى ولو تخلت عن كل الامتيازات.

أفاقت من خيالاتها على صوت الممرضة التي هرولت إليها لتخبرها أن زوجها فتح عينيه مما يعد علامة جيدة. جرت نحوه لترى عينيه ولكنه قد أغلقهما مرة أخرى.

ظلت على هذا النحو بين شبه يقظة وغيبوبة لأسبوع كامل مر على العائلة كسنة كبيسة حتى أفاق وأصبح يدرك من حوله وبدأ يحرك شفتيه وعينيه بصعوبة بالغة.

تناقصت الزيارات من قبل رجال المؤسسة رويدا رويدا حتى انقطعت تماما إلا من بعض الموظفين المخلصين ولا يزيد عددهم عن أصابع اليد الواحدة. وفي بداية الأسبوع الثاني تم تعيين أحد مساعدي الرجل قائما بأعمال المؤسسة حتى الفصل في الحالة الطبية له.

ولكن وللأسف اتضح من التقارير الطبية أن الرجل سوف يخضع لعلاج طويل الأمد متضمنا علاجا طبيعيا لعل بعض وظائف الحركة والإحساس تعود إليه قبل أن يعود إلى بيته على كرسي متحرك.

وهنا تأكد الرجل وكل من له علاقة به أنه انتهى وظيفيا وفقد صولجانه ونُسي أمره مع بزوغ نجم جديد لم يكن في الحسبان، نجم أضاء بنوره سماء المؤسسة وقد انجذبت له بوصلة كل العقول والقلوب. وبالطبع تزامن ذلك مع انقطاع باقات الورد رويدا رويدا حتى انتهى الحال

بعدم السؤال تماما من أي من الموظفين اللهم من حالات نادرة ما عدا السائق الذي ما زال يسأل على رئيسه السابق إشفاقا عليه وحبا فيه.

وكان جزاء هذا السؤال وقف عمل السائق مع الرئيس الجديد وتحويله إلى قطاع آخر في المؤسسة. لم يتذمر الرجل ولم يندم وبقي على اتصال للاطمئنان على رئيسه السابق رغم بعض الملحوظات التي كان يأخذها عليه من وقت إلى آخر ولا ينتبه لها رئيسه ولا يبالي.

وقف الرجل بكرسيه أمام المرآة يحدق في ملامحه التي تغيرت بعض الشيء بسبب الوعكة ولكنها تتحسن رويدا رويدا بفضل حرص زوجته على الدواء وصبرها على العلاج الطبيعي. ظل يحملق في ملامحه متعجبا من القضاء والقدر الذي رفعه إلى أعلى عليين ثم خسف به إلى أسفل سافلين. تحول من الآمر الناهي إلى رجل قعيد ينتظر الأمل في العودة إلى سالف حالته الصحية.

تعجب كيف يقرر القدر بين عشية وضحاها كل هذا التغيير وكأن ما كان لم يكن. استعرض تاريخه الوظيفي حتى وصل إلى ما كان عليه صباح الوعكة الصحية من انتظار المقابلة مع الشخصية الهامة.

وهنا تذكر هذا اللقاء وكيف كان ينتظره على أحر من الجمر ليأخذه إلى منصب رفيع كان دائما يتمناه. تعجب كيف نسي هذا الأمر بالمرة؟!

راودته فكرة حب الاستطلاع أن يسال أحدا ما عن سر هذا اللقاء على الأقل ليدخل السرور على قلبه وينتشي ولو في الخيال بما كان ينتظره من منصب كبير. هو يعلم علم اليقين أن مستقبله المهني قد

انتهى وولى ولكنه يريد فقط تعزية نفسه بخبر جميل من الماضي القريب.

وبالفعل رفع سماعة التليفون ليتصل بأحد المقربين من المسئول الكبير ليسأله عن مغزى الزيارة التي كان من المقرر لها يوم الوعكة الصحية اللعينة.

وبعد حديث مقتضب كانت الصدمة الكبرى التي لو كان علم بها قبل الوعكة الصحية لفارق الحياة على الفور من هول الصدمة.

أخبره الرجل أن اللقاء لم يكن لترقيته كما كان يظن ولكن كان لإخباره أن يستعد للرحيل من المنصب بدلا من إقصائه نتيجة الشكاوى والتحقيقات الكثيرة ضده والتي تم التأكد من بعضها. ذُهِل الرجل، فكيف ينتظر الترقية وتأتيه التنحية. وقبل أن يُظهر امتعاضه وتعجبه للرجل الآخر.

تم إنهاء المكالمة بلطف وبأن الله قدر الوعكة الصحية لتخفف من وبال الأمر عليه وتتحول التنحية إلى اعتذارات صحية.

تعجب الرجل مما جرى وكاد أن يصاب بوعكة جديدة لولا أنه شعر بذراعي زوجته تحوطه برفق وحنان وهي تذكره بأن ما سمعه كان متوقعا فلكل نجم صعود وهبوط وعليه أن يحمد الله أن الهبوط كان سلميا بلا دماء أو كدمات إدارية أو مالية فقد جاءته الذبحة الصدرية في الوقت المناسب قبل أن يصاب بالذبحة الصدرية والوظيفية والمالية والإدارية.

شكر زوجته على حنانها واهتمامها وردها الحكيم وقَبّل يديها بحنان بالغ وأخذها بين ذراعيه ليبدأ معها رحلة عمر جديدة كان قد نسيها في ظل دهاليز وطرقات وكهوف المناصب التي يتوه فيها صاحبها وقد لا يعود.

قبلت يديه ووجنتيه وذهبا ليقضيا أمسية رائعة في بلكونة المنزل التي لم يجلسا فيها أبدا ولو مرة واحدة منذ أن انتقلا إليه منذ عشر سنوات عجاف. أرسلت السماء بعضا من رذاذ المطر في هذا اليوم من فصل الشتاء وكأنها تريد أن تغسل عنهما أتربة الماضي وتروي العلاقات التي أصابها الجفاف. فرحا ببشرى المطر وظلا في البلكونة تحت رذاذه وكأنهما ولدا من جديد.

حاول أن يقف على قدميه بمفرده ولكنها ساعدته على الوقوف وهو ينظر إلى عينيها الجميلتين مخاطبهما "كيف للإنسان أن يهرب من السعادة الحقيقية إلى السعادة المزيفة؟! وكأنه مُنَوَّم تنويما مغناطيسيا...".

بابتسامة مملوءة بالسعادة وراحة البال ردت عليه قائلة: "إذا كان لكل وقت أذان فلكل سعادة ميقات وميزان، وها قد حل الوقت ونصب الميزان...".

ضحكا سويا وتعانقا وهما ما زالا تحت رذاذ المطر يتسامران.



صكوك السعادة

وقف الأب عاجزا أمام طفله الوحيد وهو مستسلم لملاك الموت غير قادر على مساعدته بكل ما كان يملك، فقد نفدت كل أرصدته من صكوك السعادة التي كانت في حسابه البنكي منذ لحظات.

باع كل رصيده في البنك من صكوك السعادة التي كان يمتلكها في الحاضر وحتى تلك التي اقترضها من حساب الذكريات. اتصل بالبنك فورًا ليقترض بعض لحظات السعادة لحساب ابنه ولو بأعلى فائدة، فالمستشفى تريد الحساب وشراء العلاج ولا تقبل إلا بدفع لحظات السعادة كما نص عليها قانون المعاملات المالية الجديد.

اعتذر البنك عن أي قرض للسعادة ولو بأعلى سعر للفائدة، فقد أصبحت السعادة عملة نادرة وأصبحت البنوك خاوية من أي أرصدة للسعادة.

طلب من البنك أن يستبدل القليل من صكوك السعادة مقابل أي عدد من صكوك الأحزان، فهو مستعد لحمل كل أحزان العالم مقابل أن يقترض صك سعادة واحد من أجل علاج ابنه المستسلم منذ أسبوع لملاك الموت.

أخيرًا، وافق البنك بسعر الفائدة، خمسة صكوك سعادة يأخذها الأب ليسدد بها حساب المستشفى لابنه مقابل أن يتم تحويل ألف صك حزن إلى حسابه بفائدة سنوية 15%.

لم يتردد الرجل ووافق على الفور فحياة ابنه ولو لبضع ساعات تجعله يتحمل أحزان العالم أجمع. وبالفعل تم تحويل صكوك السعادة الخمسة إلى حسابه البنكي، ولكنه على الفور بدا حزينا بعد أن تحولت صكوك الأحزان إلى حسابه.

بكي الرجل من الحزن، لم يستطع أن يفرح عندما بدأ ابنه يفيق من المرض لأنه لم يعد يمتلك أي صك من السعادة. نظر إلى ابنه بملامح الحزن، وطفله ينظر إليه في تعجب لماذا كل هذا الحزن في عيون وملامح أبيه؟!

لم يدرك الابن أن أباه اشتري له منذ ثوان قليله سويعات قليلة من السعادة مقابل أن يحمل ألف حزن على كتفيه. تنهد الأب في فرحة

لنجاة ابنه، ولكنه شعر بحسرة كبيرة على نفسه لعدم قدرته على الإحساس بالسعادة. ولكن ما باليد حيلة وما للسعادة من حيلة.

فجأة، امتلأت المستشفى بالصياح والهتاف والتكبير. خرج الأب يسأل عما يحدث في الخارج ليفاجئ بأن الدولة وبعد دراسة مستفيضة للواقع قررت أن تلغي قانون المعاملات المالية الذي يعتمد على تداول عملات صكوك السعادة والأحزان إلى المعاملات المالية المعتادة. لم يصدق الرجل ما سمعه.

اتصل فورًا بالبنك ليتأكد من صحة الخبر. وبالفعل أكد البنك صحة إلغاء القانون والرجوع إلى المعاملات العادية. حمد الله أن الدولة أعادت معاملات البيع والشراء إلى ما كانت عليه.

هو يتفهم جيدا السبب الذي دفع الدولة إلى فرض قانون معاملات البيع والشراء الجديد طبقا لما يملكه الأفراد من صكوك سعادة، يبيعونها مقابل شراء احتياجاتهم اليومية، وإن لم تتوفر صكوك السعادة من الحاضر فمن الممكن أن يبيعوا ما لديهم من أوقات سعادة من الماضي حتى ولو أصبحت ذكرياتهم فارغة من السعادة وتحولت إلى أحزان وهموم.

وبعد نفاد رصيد صكوك السعادة يسمح القانون باقتراض صكوك سعادة من الآخر بعد موافقته.

وفي حالة عدم توافر صكوك أو في حالة عدم موافقة صاحبها، سمح القانون بتحويل صكوك هموم وأحزان الدائن إلى المدين مقابل صكوك قليلة من السعادة.

نعم الرجل يقدر السبب وراء قيام الدولة بسن هذا القانون والذي كان نتيجة الفروق الشاسعة في درجات السعادة والحزن بين الناس في السنوات الأخيرة بسبب التفاوت المادي الشاسع.

كانت الدولة تعقد الأمل على القانون الجديد في ضمان تبادل السعادة بين الناس ولكن واضح أن القانون أدي إلى العكس وحدث احتكار للسعادة على حساب الأحزان حتى أصبح معظم الناس مكتئبين ولو كانوا يمتلكون ملايين الصكوك من السعادة، فالسعادة لا تكفي لشراء معيشة يوم واحد في هذا الغلاء.

كاد الرجل أن يطير في الهواء من الفرحة، ولكنه لم يستطع أن يعبر عن فرحته فما زال قانون صكوك السعادة والأحزان يسري عليه.

ولما أدرك عدم قدرته على الفرحة طلب من البنك استخدام كل أرصدته المالية بدلا من صكوك السعادة لكي يستطيع أن يعبر عن فرحته لابنه الآن. وبالفعل، قام البنك بتحويل حسابه من عملات السعادة والأحزان إلى العملات المالية.

وما إن تم التحويل حتى انفرجت أسارير الأب وامتلأت ملامحه بالفرحة، وجري نحو ابنه ليقبله ويحضنه ألف حضن.



سأل الابن أباه، لماذا كل هذا التغيير في ملامحك يا أبي من حزن إلى فرحة؟ رد الأب بحنان تحمله دمعات تساقطت من مقلتيه: لأني أدركت يا بني أن السعادة غالية عند أغنى وأفقر الناس، ولا يستطيع أحد أن يفرط فيها ويقرضها للآخر أيا كان سوي الأب لابنه.

لم يدرك الطفل الصغير المغزى من كلام أبيه فكل ما يهمه الآن أن أباه أصبح يبتسم وهو يختبأ في حضنه.



بذور الحب

وقفت في الشرفة أنظر إلى النبتة التي تبدو لي كالفارس المغوار الذي يشق الغبار غير مبال بالأخطار. وقفت أنظر إليها بإعجاب شديد، فكيف لها وهي بهذه الرقة والنعومة والعذوبة الطاغية وألوانها الخضراء الزاهية أن تخترق سطح لُجة الطين وتنفذ منه بمنتهي الرقة والفخر رافعة رأسها الأخضر وسط الطين حولها في الأصيص الذي بدا هو الآخر منتعشا برائحتها الذكية وزيها الأخضر الناصع الأنيق.

ظللت أنظر إلى نبتتي، بل معشوقتي، الغالية منبهرا بابتسامتها التي ترسلها إلى من شفتيها المورقتين التي يزينهما أخضر شفاه جميل.

فكرت أن أتصل بصديقي الفنان والرسام المبدع وصاحبي الآخر مصمم الأزياء المشهور لكي يأتيا فورا ليتعلما من نبتتي كيف يكون

تناسق الألوان مع الرقة، وكيف يبدو الأخضر أكثر جمالا وسط التربة السمراء.

ولكني غيرت رأيي وآثرت أن أتلصص على معشوقتي وحدي لعل الأرق الذي يملأ جوفي يذوب رويدا رويدا وأنا أراقب هزات أوراقها (بميكروسكوب) الموبايل الجديد. ذاك (الميكروسكوب) الذي صنعته أخيرا من أجلها بعد عدة محاولات ناجحة حتى أصبحت قادرا على قراءة أسرار الأوراق بنبتتي وكأننا أصدقاء، حتى ظننت أن كلانا أوراق من نسل أوراق.

ظللت أراقب نبتتي وأسجل ملاحظاتي في مذكراتي وكلما سجلت ملحوظة ابتسمت بفرحة على ابتسامات أوراق نبتتي التي ترسلها لي عبر الأثير فأشعر بالخجل منها وأستمر بلا توقف حتى امتلأت الصفحة عن آخرها.

أغلقت كراسة المذكرات وجلست على مقعدي بالشرفة ومازالت عيناي معلقة على نبتتي متسائلا، كيف حدث هذا؟! كيف تُقرر النبتة أن تحيا فجأة وسط الطين الذي غرستها فيه لمدة أسبوعين دون أن تنبت بالرغم من أن زميلاتها في الشرفة الأخرى لم يمر عليهم سوي ثلاثة أيام حتى أطلت برؤوسهن الخضراء من عمق الطين الأسود بالأصيص الفخاري.

كيف لنبتة ظننت أن الحياة الكامنة في جنينها قد آلت للسقوط وأُجهضت وتحللت في بطن الطين وكأنها لم تكن؟! كيف يحدث فجأة

أن تقرر أن تنبت في نفس اللحظة الحاسمة التي قررت فيها أنا أن أحرث بطن الأصيص وأزرع فيه بذرة أخرى لعلها تنبت مثل زميلاتها؟!

أتذكر تلك اللحظة جيدا والتي حدثت منذ ثلاثة أيام وفي إحدى يدي أداة الحرث وفي يدي الأخرى البذرة الجديدة التي اخترتها بعناية لاستبدل بها تلك التي زرعتها منذ ثلاثة أسابيع دون جدوى.

وما إن دخلت الشرفة وتوجهت ناحية الأصيص الذي أخذ مكانه على حافة الشرفة ناحية الشارع، حتى فوجئت بنبتتي مورقة برأسها الأخضر الجميل. لم أصدق نفسي ساعتها فرُحت أحييها بيدي والسعادة تملؤني كلي.

أسرعت بإحضار الكاميرا لأسجل تلك اللحظة الفريدة التي جعلتني أولد من جديد.

لم يزل التعجب عن رأسي إلا بعد أن نجحت في تصنيع الميكروسكوب المحمول بحجم الإبهام. فقد استطعت به أن أكشف السر الكبير وراء هذا التعجب الكبير.

كشفت اللغز وراء خروج نبتتي بل معشوقتي سالمة ومرفوعة الرأس بتاجها الأخضر الرائع من وسط لُجة الطين الأسمر. السر الذي جعل نبتتي تولد من رحم الطين باسطه ورقتيها بسعادة كجناحين في هواء شرفتي التي أصبحت لي من هذا اليوم بيتي الأثير.

قرأت على عروق أوراق الشجرة: "أحببتك حب العالم ولكني خفت على حبي من العالم فغرست بذور حبي في هذه النبتة زرعتها في شرفتك حتى أبقي في قلبك للأبد".



شعب بلا فرعون

بعث الفرعون مرة أخرى من مرقده بعد أن أفاق فجأة من تأثير علاج كان قد اخترعه له طبيبه الخاص استجابة لطلب الفرعون عندما هرم ولم يعد قادرا على إدارة البلاد بقوة. وعندما أفاق وجد نفسه في مكان منعزل عن الوجود بناء على وصف الطبيب حينئذ، وبعد أن تفقد هندامه وملابسه الملكية الفرعونية أخذ يبحث عن قومه ليحكمهم، وأخذ يبحث ويبحث حتى وجد أناسا بزي مختلف ولغة مختلفة وأعمال مختلفة.

تعجب لما يدور حوله وتعجب أكثر من ضحكات الناس على هيئته ووصفه بالمجنون كما يبدو من إيماءاتهم وحركاتهم. توقع أن يكون ذلك بسبب انقلاب ابنه الأمير عليه والذي كان يسعى لذلك مرارا ولكنه

فشل بسبب قوة شكيمة والده الفرعون. ولكنه لا يفهم لغة الناس فاستبعد هذا الاحتمال وظن أن ابنه قد قام بترحيله أو نفيه إلى بلاد أخرى لا يعرفها بعد.

تحير ماذا هو فاعل؟! لكن قبل أن يقرر فوجئ بعربة قادمة نحوه.

عربة لا تجرها الخيول كما تعود لكنها محمولة على أربع عجلات سميكة وتتحرك بقوة ولا يدري كيف لها أن تحمل كل هؤلاء وتتحرك بقوة وبدون أي خيول؟!

لم يتركوا له المجال ليتعجب أكثر فقد حملوا عليه وأخذوه عنوة وهو في ملابسه الملكية للفرعون الأكبر. وساقوه إلى سرايا المجانين لتبدأ مرحلة جديدة من حياته كأحد عوام الشعب المجنون.

ولأن المجانين لا يعرفون ولا يعترفون بأي لغة، تحدثوا مع نزيلهم الجديد بلغاتهم البهلوانية بسعادة بالغة بتعلمهم لغة جديدة تخيلوا بجنونهم أنها اختراع للغة جديدة أرادوا أن يتعلموها بجنونهم. وهنا تأكد له أنه حبيس مع قوم مجانين يجهل لغاتهم، فهو يعلم تماما لغات الجسد للمجانين ويعلم سلوكهم من خبرته الكبيرة في تحويل العديد من شعبه الفرعوني المعارض أو المتمرد إلى مجانين. وهنا قرر أن يتعلم تلك اللغة لعله يستخدمها يوما ما عند خروجه من هذه السرايا.

وبالفعل تعلم اللغة بسهولة بعد أن اكتشف أن معظمها مستمد من لغة شعبه الفرعوني.

فوجئ صباح اليوم التالي الذي استيقظ فيه مبكرا بهرج وهياج شديد ليس بين أقرانه المجانين لكن بين الأطباء والعاملين.

وفجأة هرب كل الأطباء وهرب العاملون وهرب المجانين وهو لا يدري ماذا يحدث هناك؟ ولكنه فوجئ بأحد العاملين وهو الشخص الوحيد الذي لم يترك السراية ويهرب، وجده في مكانه يباشر عمله وحده.

توجه إليه ليسأله عما يجري وعن سبب عدم هروبه.

تعجب الفرعون عندما أخبره الرجل بأن هناك ثورة حدثت في البلاد من الشعب تجاه الحاكم، فخاف الناس وتركوا كل شيء وهربوا سأله: ولماذا لم تهرب معهم، أكان بسبب عدم قدرتك على الهروب. أخبره الرجل، بل لأني أحب المكان وأخلص للعمل فيه.

سأله الفرعون، تُذكرني بشعبي الذي بني للعالم حضارة كبرى. ابتسم الرجل العجوز بأسي على حالة جنون هذا الرجل المتقمص ليس فقط لباس الفرعون ولكن أيضا هيئته وهيبته وروحه منذ مجيئه.

- لماذا تبتسم؟ ألا تصدقني أيها الرجل الفرعوني حفيدي؟ سيأتي اليوم الذي تدرك فيه من أكون؟ ثم استمر يلقي أسئلته على الرجل، ومن حذف الفرعون الجديد القادم من رحم هذه الثورة؟

ضحك الرجل ضحكة عالية، هذه المرة أنت صادق، ففعلا قد رحل فرعون ولكن مؤكد سيأتي فرعون آخر ولكن لا ندري اسمه بعد، ولكن لا تخف فالعسكريون يسيطرون على الأمر.

- دعك من هذا يا عم الفرعون الأكبر واخلع رداءك الفرعوني المضحك هذا واهرب بجلدك ولكن قبل أن تهرب ارتد ملابس أخرى لتبدو عاقلا مثل كل الناس في الشوارع والحارات.

- لماذا تطلب مني الهرب أيها الرجل وأنت لم تهرب؟ وأنت تعلم أني مجنون؟ لماذا تناقض نفسك؟ أنا لا أناقض نفسي يا فرعون، أمرتك بالهرب لأني أدركت بخبرتي أنك عاقل ولست بمجنون.

وسريعا خلع الفرعون الأكبر ملابسه الفرعونية واحتفظ بها في شنطة معه علقها على ظهره كما علمه الرجل وارتدي ملابس عوام الشعب التي أعطاه لها الرجل ونظر إلى الرجل بنظرة فرعونية آمرة والرجل يبتسم إليه ضاحكا، لن يمر وقت طويل حتى تكون أحد المقربين ببطانتي لكرمك معي أيها العجوز، فقط قل لي ما اسمك؟

ضحك الرجل عاليا ومقهقها: أنا يا سيدي معروف هنا بصديق المجانين العقلاء.

وخرج الفرعون بهيئته ولغته المصرية الجديدة وردائه الفرعوني على ظهره وذاب وسط الناس في الشارع يهتف معهم بصوته الفرعوني ولكنته الفرعونية وهيئته الفرعونية.

التف المتظاهرون حوله وحملوه فوق الأعناق وهو يقول يسقط الفرعون، يموت الفرعون.

حمله الناس على الأعناق بعد أن وجدوا فيه حماسهم الكبير في إسقاط الفرعون وهم لا يعلمون أنه بالفعل يعني إسقاط الفرعون الذي انقلب عليه.

وهنا بدأت الملحمة الكبرى في وصول الفرعون القديم، الفرعون الحقيقي إلى الحكم وكيف قام بتغيير للبلاد بحكمته وخبرته الفرعونية ليصنع منها وطنا كبيرا يتمتع بحضارة فرعونية كبرى على غرار ما صنعه في نفس البلاد قبل الميلاد.

ووقف يخطب في الناس "أيها الناس، قد تنهار البلاد إذا تملكها فرعون بلا شعب، لكنها تتحضر إذا تجمهر فيها شعب بلا فرعون، فاعتزوا بأنفسكم وتمسكوا بفرعونكم".

وهتف الناس وراءه يحيا الفرعون ويحيا الناس.



شرنقة الحياة

وبعد مشوار طويل من إخفاقات النهار الساخنة وأحزان المساء الباكية قرر أن يبني شرنقة من خيوط مشاعره الطيبة ليحبس نفسه فيها عن العالم بعد أن لفظ كل أسباب المدد من روحه المتعبة إلى كل من حواليه.

وبعد أن طال حبسه الانفرادي طواعية وبعد أن ازداد اشتياقه حتى لأعدائه خرج من شرنقته التي ضاقت على أحزانه قاصدا شوارع الحياة لعله يقابل هناك أحدا من أصدقائه أو أعدائه ليفضفض عن اشتياقه لمتاعب الوحدة ومرها.

مشي في جميع الشوارع والطرقات لكنه فوجئ بخلوها من كل مظاهر الحياة. لم يجد أحدا حوله ليسأله. تعجب أين ذهب الناس

صغيرهم وكبيرهم؟ غنيهم وفقيرهم؟ شقيهم وسعيدهم؟ أميرهم وخفيرهم؟ الأشياء كما هي لكن لا أحد هنا.

ركض في كل ناحية لعله يجد أحدا هنا أو هناك ولكن بلا فائدة. شعر بوحدة قاتله بل وغربة مخيفة جعلته غير قادر لا على البقاء في الشارع ولا على الرجوع إلى عزلة شرنقته. فحتي وهو في شرنقته كان يعيش على أنفاس الناس في الشوارع ولكنه الآن فقد كل حتى النفس التي كانت تؤنسه.

وفجأة شعر بأن العالم كله يبتسم له بل وكأنه ولد من جديد حينما ظهر له من تحت الأنقاض طفل صغير يجره كلب حراسة كبير. جري نحو الطفل يسأله بلهفة دون أن يعبأ بجروحه أين الناس؟ أين الجميع؟

نظر إليه الطفل في ذهول وفي عينيه بكاء العالم أجمع منذ بدء الخليقة، لقد هلك الجميع هلكوا وأخذهم الطوفان وراحوا ومعهم أبي وأمي وإخوتي وكل من أعرفهم.

لم أشعر بنفسي إلا وهذا الكلب يشدني من تحت الأنقاض. ورغم فرحة الطفل العارمة برؤية هذا الرجل إلا أنه تعجب متسائلا ولكن كيف أنت هنا الآن سليما معافي ولم تشعر بكل ما حدث؟!

لم يدر الرجل بماذا يجيب، هل يخبره بحكاية الشرنقة؟ فهو لنا يدركها ولن يصدقه، هل يكذب عليه بأنه كان خارج البلاد ولكن كيف وصل هنا وهو معافي والدنيا كلها علمت بما حدث؟!

وقف الرجل صامتا أمام الطفل والكلب بجواره فاغر فاه ومازال يلهث من الإجهاد.

ضل الطريق في صخب الحياة وضاق صدره كأنه يصعد للسماء من كثرة الكذب والنفاق والغيبة والنميمة والحقد من حوله وتذكر أنه أعرض عن ذكر ربه من دون أن يدري وأسرف في الانشغال بالدنيا ومن فيها، فاختبأ داخل ذاته واعتكف في صومعته يذكر الله قياما وقعودا، يرجو رحمته ومغفرته، ويدعوه رغبا ورهبا، ويسأل الله الحسنى وزيادة، حتى اطمأن قلبه، وذهب غيظه وانشرح صدره فأعاده الله من جديد إلى الحياة بعدما ظن بالله أنه ابتلاه، ولكنه أدرك أنه أنعم عليه بأن نجاه من الفتن حوله ورده إليه ردا جميلا.

لن تفهم يا بني إلا عندما تكبر وتضع الحياه بصمتها عليك وعندها فقط ستضطر للسفر إلى عالمك الخاص وما بالك بعالمك الخاص الذي عندما تقرر الخروج منه ستجد أن العالم كله قد تغير لأجلك لقد كنت منعزلا عن العالم غارقا في أحزاني، كنت أتلقى أهم درس في حياتي..

ثم يقوم بضم الطفل، ويدور بينه وبين نفسه حديثا يكاد يبكي قلبه، كيف هذا؟! كيف يكون الإنسان أحمق إلى هذه الدرجة!! تغير كل شيء ولم تقف الدنيا عند أحزاني وانعزالي، لم ينتظرني أحد، ربما انتهت حياة، وحياة أخرى ف طريقها للبداية، بينما أنا تائه ضائع.

لن تتوقف الدنيا على أحد، لن ينتظرك العالم حتى تنتهي من أحزانك وتبدأ في مسيرك من جديد، ربما كان انعزالي في ظاهره سبب لنجاتي، ولكن نجانى.

من ماذا؟! الموت!! فلا نجاة من الموت، جل ما في الأمر أن عمرى لم ينته بعد، لقد شملني لطف الله وأعطاني فرصة ثانية.. الله!!

تبا لي، ما الذي فعلت؟! كيف لي أن أسئ الظن بربى هكذا؟! كيف تركت نفسي لتغرق في أحزانها دون أن تتوكل على خالقها؟

فبينما كنت أؤذى نفسى بغرقى في أحزاني وآلامي، بكرمه ولطفه أعطاني فرصة جديدة للحياة، بل وجعل لي الأمل في هذا الطفل المجروح ليرمم بعضنا البعض ونبدأ حياة من جديد.

لقد كنت سيئا وأسأت ظني بالله وتركت أحزاني تستدرجني للانعزال والتوقف عن الحياة، في حين أن خالقي قابل ذلك بكرمه ولطفه، أجل كان اهم درس في حياتي، درس بعثي من جديد، سأواجه العالم، حتى وإن كنت مكسورا ومليئا بالألآم، سأجعل من ألمى دافعا لي للخوض في هذه الحياة وسأجعل سلاحي الثقة بالله.

وربما كان هذا الطوفان تقدم هائل غير العالم أجمع في ظل التطور السريع الذي نحياه، مما جعل هناك فجوة زمنية بين هذا الرجل والعالم الجديد.



عمود الإنارة

الشوارع تسكنها ظلمة حالكة تتدلي فوق جدران مهدمة وبنايات خربة مملوءة ببقايا أعضاء بشرية مبعثرة في كل ركن من أركان المدينة التي غطتها دماء حية ومتجمدة. ما رآه اليوم منذ بزوغ النهار حتى حلول المساء مناظر بشعة تدل على همجية القتال بل هي الحرب الأهلية التي نشبت بين أهل أو بالأحرى سكان هذه المدينة المسكينة التي كانت تعج بالحياة حتى الأمس القريب.

تعجب كيف نجا من كل هذا الدمار الذي التهم كل حي ويابس في المدينة؟ مؤكد أن هناك أيدي خفية هي التي اختطفته من وسط هذا الدمار وخبأته بعيدا في مكان ما تحت الركام عندما وجد نفسه يقوم من تحته ينفض التراب من على ملابسه دون أن يصاب بأي أذي من جروح

أو خدوش. وقف حائرا وسط أكوام الخراب والظلمة الحالكة ورائحة الموت تكاد تقتله لا يدري ماذا يفعل هنا وسط هذه الوحدة وهو لا يملك ماءا ولا زاد. لم يملك إلا أن يبكي الذكريات وينعي الزمان والمكان.

وفي وسط هذه الظلمة الحالكة والسكون المخيف الذي يطبق على قلب المكان لمح عمود إنارة هناك ما زالت لمبته مضيئة تتحدي مئات الأعمدة التي ماتت وتهاوت على الأرض محطمة.

شعر بسعادة ميتة في قلبه الخائف فقد وجد شيئا ما يشاركه الحياة وسط هذا الخراب حتى ولو كان عمود إنارة مازال واقفا شامخا على قدميه لا يخاف الدمار ومازالت الحياة تدب فيه ومازالت لمبته تنبض بالنور تماما مثل قلبه الذي ما زال ينبض بدماء كادت أن تجف من شدة الخوف.

اقترب بحذر من عمود الإنارة الذي يقف وحيدا في الشارع المظلم مرسلا حزم أنوار أشعة لمبته البيضاء إلى الأرض تحته وكأنه يبحث عن شيء ما يختفي تحت الثري. لم يبق سوي متر واحد يفصل بينه وبين العمود. التفت يمنة ويسرة يتحسس المكان تحت هو حول العمود مخافة أن يكون في الأمر خدعة تستقطبه ثم يظهر من يفتك به.

ولما تأكد له أن المكان أمان وأن العمود ليس له صاحب، ألقي بجسده المنهك والجائع على الأرض وأسند ظهره إلى جذع العمود لعله

يأخذ قسطا من الراحة حتى الفجر ليكمل مشواره في هذه المدينة التي خربتها الأيدي المتحاربة دون سبب واضح أو مقنع.

وما إن ركن ظهره وبدأ شعور الراحة يتسلل إلى جسده ومشاعر الوحدة والظلمة والسكون تهدأ مع صحبة العمود وأشعته الدافئة، سمع صوت أنين وأصابع تنبش في التراب تحت قدميه. تبدد شعور النعاس من عينيه وأسرع ينبش في التراب مع الأيدي التي تنبش تحته حتى تلاقت الأيدي وتشابكت الأصابع. جذب تلك الأيدي الصغيرة برفق من تحت الثري حتى بان له وجه رائع الجمال، وجه طفل لم يتعدّ السابعة يبحث عن حياة من خلال مولد جديد.

نفض التراب من على وجهه وأزاح الركام من على جسده واطمأن أنه مازال على قيد الحياة. حمله برفق وضمه إلى صدره المتعب وأعطاه من أنفاسه ليبعث فيه الحياة.

تمني الحياة لهذا الطفل البريء لعله يكون له رفيقًا بعد أن فقد كل الرفقاء.

تمني أن يكون له ولد بعد أن عاش العمر كله يحلم بولد حتى فقد آخر أمل له عندما فارقت زوجته الحياة في آخر مخاض. ظل ينشد الحياة ألا يترك قلب هذا الملاك الذي نبت من تحت الأرض ليؤنس حياته البائسة.

أخيرا، فتح الطفل عيناه وتلاقت العيون في شغف على أمل أن تستمر فيه الحياة. وما إن سأل الطفل عن اسمه حتى اكتشف أنه ابن

ألد أعدائه الذي كان يتربص به وكاد أن يسجنه أو يقتله. ابتسم بحسرة في نفسه وضم الطفل برفق وغسل وجه المسجى بالتراب بدموعه التي سالت ندما على كل لحظة كان فيها عداء.

انهمر في البقاء بحرقة وأسي وتمني أن تعود الحياة في النفوس التي قتلت والبنايات التي هدمت فقد كان هو صاحب قرار الشرارة التي أحرقت كل شيء هنا حيًا كان أو جمادًا. ولكن التمني والندم أبدا لا يعيد الحياة في الموتى والأطلال.

انتظر حتى الفجر وحمل الطفل بين يديه ومشي يكمل مشوار الحياة في طريق مملوءًا بدخان الحرائق والخراب ورائحة الموت. طريق يتمني أن تكون نهايته حياة. تمني ثم قرر أن يعمر الأرض الأصدقاء والأعداء، الأرض التي حرقها تحت قدميه بأمواله سوف يبنيها مرة أخرى بما تبقي من أمواله.

مشي بحسرته عما فعل والأمل يتسلل إليه عما سوف يفعل والطفل محمول على ذراعيه يبحث عن أبويه بعينه وسط الركام بلا جدوى حتى أنامه التعب وتغلب عليه النعاس.



ليلة القيامة

بعد عمل يوم طويل ملئ بالمتناقضات، يوم تزين نهاره بصخب العقول الضاربة والقلوب الحالمة على جانب من مدينة أحلامه، فجأة وهو في طريقه إلى بيته محملا بكل أحداث اليوم الصاخبة انتفضت عيناه على هول ما رأي.

رأي السماء وقد كُشطت ثم وهي تُطوي مرة واحدة حتى تحولت وكأنها حزمة من الورق المقوي معلقًا في الفضاء الذي أصبح عاريا من كل جمال.

رأي الأقمار وآلاف الكواكب وهي تجري في خوف وهلع محاولة أن تهرب بعيدا ولكنها انكدرت وتدلت من أفلاكها وانتحرت حزنا على غطائها السماوي. وبدت الشمس معلقة في الفضاء ولا تعلم لمن

تضخ أشعتها لكون هائج قررت سماؤه أن تعتزل وظيفتها الكبرى كغطاء يحمي ويجمل أديم الأرض ويعقمها بالأشعة الكونية.

أُصيب بحالة من الذهول وهو يشاهد كل شيء فوقه يتحلل فبدأت أنهار داخلي...

راح يجري يمينا وشمالا لعله يجد الطريق إلى بيته الذي ظنه قريبا، إلا أنه فوجئ بالجبال الشاهقة تسير حوله كالبواخر في اليم ثم تنهار فجأة في منظر رهيب تشيب له الولدان. وعندما حاول الهروب من هذا الانهيار، هاله منظر الأرض وهي تتمزق وتتشقق تحت أقدامه كل شق هو بئر في أرض مظلمة ليس لها قرار.

لم تمض لحظات حتى وجد الشمس هي الأخرى وقد سحبت أشعتها، وأطفأت شعلتها، وتكورت وانفجرت وتلاشت من الكون الذي يئن فأصبح نوره ظلامًا معتمًا سرمديًا وكأن الشمس لم تكن هنا في يوم من قبل.

أصبح لا يبصر شيئا ولا يسمع شيئا. وأصبح الكون كله صمت رهيب وظلمات في ظلمات. أصبح يشعر وكأنه كتلة من الهم والحزن والضيق والخوف ولا يدري ماذا هو فاعل وحده وسط كل هذا الدمار والخراب؟

فجأة تحول الضيق إلى فرج عندما رأي شعاع ضياء يملأ الكون يتدلى من أعمدة من نور كادت أن تخطف بصره. ولكن هرب الفرج منه سريعا. فكلما اقترب منه وجد مياه البحر وقد سُجرت، ترتفع كالجبال

المتصارعة فتعلو صيحاتها التي تخيف الشيطان نفسه لو رآها أو سمعها.

رأي ذرات مياه البحر كتل من النيران الحامية تأكل الهواء وتبتلعه تاركة الناس حوله بلا أنفاس وهي تتهاوي صرعي وكأنها أعجاز نخل خاوية....

شعر بصدره يضيق وينطبق، وقلبه يرفرف كذبيح بألف سكين، وعقله يهذي بلا صديق. شعر وكأن القيامة قد قامت على غرة وهو لا يدري.

شعر وكأن آلاف من القنابل الذرية قد أُلقيت على مدينته وهو الوحيد الذي نجا من الهلاك. أصبح يشعر وكأنه دودة تزحف في الأنفاق المظلمة بلا رفيق. تمني أن تنال مني هذه الانفجارات لتنقذه من هذه الوحدة القاسية والظلمات العاتية.

حاول أن يجمع كل قواه الروحية ليدعو الله كما دعا داوود ويونس ونوح ولوط وإبراهيم ويوسف وموسى ومحمد لينجو برحمة الله كما نجوا، ولكنه كلما حاول الدعاء تجمد لسانه كما تجمدت أطرافه ومسامعه وبصره فيزداد هلعه وخوفه.

وفجأة وهو وسط كل هذا الصمت الرهيب والظلمات القاسية والخوف والهلع والوحدة القاتلة بلا موت، سمع صوت الرياح الهائجة وهي تثير حُطام الجبال عاليا حتى شم الخراب في كل ما حوله وتحت

قدميه وأصبح يتنفس ترابًا وغبارًا فاختنق من الصمت والوحدة ومن الخوف والظلمات.

هرول وهو لا يتبين كفيه ولا يدري طريقه وأمامه من خلفه، هرول مبعثرا محاولا أن يتسمع صوت نبات أو حيوان أو أنين إنسان أو حتى زفير شيطان حتى لا يكون وحيدا وسط كل هذا الخراب.

هرول مبعثرا في روحه وجوانحه محاولا أن يتلمس ضوءا يخترق هذه الظلمات التي تُطبق على أنفاسه فلا هو ميت ولا هو حي. هرول كفأر أعمي أصم يهرب من نار وفيضان وزلازل وبركان ودخان ولكنه لم ير ولم يسمع إلا رائحة الأجساد العفنة التي التهمتها الحرائق ونفثتها مع كتل اللهيب الحارق والرياح التي تقتلع بقايا الهواء من رئتيه. تمني الموت وللأبد ولكن الموت هرب منه وتركه وحيدا مع وسط خراب لا يستطيع حتى أن يراه.

ملأه الهم والضيق والحزن حتى أصبح هو الخوف والقلق والحيرة واللاشيء. هرول يمينا وشمالا لعله يجد ونيسا يؤنسه في خوفه وهمه. ونيسا يخاف ويموت معه وسط هذه الوحدة القاتلة والكون الخراب. ولكنه لم يجد إلا الدمار والخراب حتى تمني أن يكون مجرد عدما قبل الآن.

وفجأة تحول الحزن والخوف إلى فرج عندما سمع صخبا على الجانب الآخر من المدينة. هرول يتسمع ويتلمس حسيس الأصوات. ولما

اقترب رأي الحياة مازالت تدب هناك في وجوه الناس. لكن الناس غير الناس والوجوه غير الوجوه.

أناس يهيمون في شوارع خاوية على أخلاقها فيها الناس غرقي في اللذات ومتع الحياة بين الهمزات واللمزات. وعبثا حاول أن يقص حكايته على هؤلاء الناس ولكن صوته الواهن ذهب هباء مع أدراج الشهوات العارمة والأنفاس الصاخبة وحركة العربات الفارهة وعلو البنايات الشاهقة وهرولة الأجساد المتعجلة العارية.

وعبثا حاول أن يحذر من الدمار الذي لا محالة آت من الجانب الآخر من مدينته، لكن رماه الناس بنظرات الإشفاق والسخرية واتهموه بالجنون ونعتوه بمجنون الذكريات وهموا بحبسه خوفا من هذيانه.

هنا تملكه الخوف وسكنته الهموم وأطبقت على صدره قبضة الأحزان. حينئذ قرر أن يعود هاربا إلى الجانب الآخر من مدينته ولو وحيدا في ظلمة حالكة لا يدري فيها يمينه من شماله ولا فوقه من تحته حتى يأخذه الموت تحت الركام عندما يشاء.

هرول مسرعا وهو ينظر وراءه خوفا من هناك وطمعا في هنا. وهو وسط الدمار والخراب والوحدة والظلام حاملا فوق كتفيه وصدره جبالًا ثقالًا من الهموم والأحزان والخوف من الظلمات، سمع صوتا وكأنه نفخة الصور الكبرى في أذنيه وكأنه يبعث والأموات ليوم الحساب. شهق من فرحة سماع هذا الصوت وكأنه الفرج الذي هبط عليه من السماء لينقذني من هذا الهول ويبعثه مهما كانت عواقب الحساب عند الله.

لكنه استيقظ فجأة فقد كان الصوت رنين منبه الساعة السادسة في المساء. حينئذ قرر أن يزرع في صدره منبها يوقظه كلما غفا أو نام، قلبا يدق بالإيمان.



مشاعر مبعثرة

تبعثرت مشاعره فوق سجادة الصلاة، فلا هو يدري أيدعو على من ظلموه ظلما وبهتانا وعن عمد؟ أم يدعو لمن ساعدوه بكل ما لديهم حتى يظل دائما واقفا على قدمين ثابتتين؟

وقع في حيرة كبرى من أمره، فهذه أول مرة يشعر فيها بهذا الارتباك بسبب مشاعره الممزقة والمبعثرة، خاصة أنه لم ينو أن يدعو على أحد من قبل. وبعد دقائق من الحيرة والقلق، لملم مشاعره ونهض ليقيم الصلاة ويكبر بعد أن قرر أن يدعوا على من ظلموه بلا سبب، الذين أوقعوه في لُجة بئر عميق من الحزن دون سند.

وما أن رفع يديه إلى أذنيه وكبر وتهيأ للحديث مع الله، حتى سمع صوت أنين مملوء بصوت ألم دفين. تعجب من أين يأتي هذا الصوت

ومن صاحبه فهو يعيش منذ سنوات بمفرده بلا رفيق. وعلى عجل، سلم عن يمينه وعن شماله وخرج من الصلاة يبحث عن مصدر هذا الأنين.

وما إن نظر خلفه حتى وجد قطه ورفيقه طريح الأرض بلا حراك وصوت الأنين المملوء بالألم الدفين قادم من أحشائه. جري نحوه يتفقده فتمزقت مشاعره مرة أخرى وتبعثرت على سجادة الصلاة.

وبعد لحظات مرت عليه كالدهر، لملم مشاعره المبعثرة مرة أخرى وحمل القط بين يديه يتفحصه فوجده جثة هامدة لا حراك فيها إلا من عينين واسعتين تبحثان عن راحة وأمان.

تعجب كيف يحدث هذا فجأة؟! وقد داوم على إعطاءه الدواء الذي وصفه له الطبيب منذ أسبوع بعد أن لاحظ عليه حالة الاكتئاب الشديد والحزن الصامت الذي هده هدا وجعله يتجنب الطعام.

وما إن وقعت عيناه على عيني القط الآيلة للسقوط، حتى شعر بغصة في قلبه، وحزن يجري في دمه، ودموع تتساقط من عينيه فوق وجه قطه الحزين الذي بدا له كخرقة بالية.

تمزقت مشاعره مرة أخرى وتبعثرت بعد أن شعر بأنفاس القط تتهاوي بين يديه، ورويدا رويدا صمتت أنفاسه للأبد ومازالت عيناه مفتوحة على مصراعيها والحزن والألم قد تجمد فيهما أيضا للأبد. انفطر قلبه وتصدعت مشاعره بعد أن فارقت الروح جسد رفيقه.

نظر إليه بأسي وكأنه ينظر إلى نفسه التي سوف تكون آجلا أو عاجلا جثة هامدة كهذا القط الآن. وتساءل في نفسه، إذا كان هذا



شعوري بالقط وهو الذي لم يرتكب ذنبا واحدا قبل رحيله، فما بال حالي وكلي ملآن بالذنوب؟! بكي على نفسه وعلى قطه بحرقة كما بكي من ثلاث سنوات على فراق طفله الوحيد.

وضع جثته جانبا ورجع إلى سجادة الصلاة ليصلي ويتحدث إلى الله قبل أن يعود إلى قطه ورفيقه ليواري جسده.

تحامل على نفسه الحزينة محاولا لملمة مشاعره المبعثرة، ورفع يديه حتى أذنيه في سكينة وهدوء، وكبر ودخل في الصلاة ولكن بعد أن قرر هذه المرة أن يدعو لمن ظلمه ولمن عاونه سواء بسواء، يدعو من قلبه الذي امتلأ لتوه بالحب والحنين لكل الناس.

وهنا كان حديثه ولأول مرة مع الله كحديث الملائكة بعد أن رأي في فراق القط سرابًا كبيرًا اسمه صراع الحياة.



مشاعر تبحث عن طريق

توالت عليه المعارك الضارية التي كلما أفاق من إحداها تلقي ضربة أخرى أفقدته توازنه. كاد أن يُغمي عليه من كثرة الضربات ويُقضي على أحلامه وأمنياته التي جاهد كثيرا في غزل خيوطها لينسج منها رداء من العلم والحكمة. كاد أن يتحول إلى أشلاء نفسيه متناثرة فكره الناس وكره الوجود حتى كاد أن يكره نفسه.

ظل يفكر ويفكر ماذا هو فاعل تجاه كل هذه العداءات وكل هذه المعارك الضارية والمختلقة رغمًا عنه والتي أدمت جوانحه. تعجب عن لأسباب كل تلك المعارك رغم أن قلبه من لون الشجر الأخضر في فصل الربيع ولكنهم ينهالون عليه وكأنه جلمود صخر. ورغم أن عقله مثل النخيل الباسق ولكنهم يقذفونه بحجارة دامية من سجيل، ورغم أن

روحه مثل النسيم الرقراق ولكنهم يرونها كالرياح العاتية التي يجب أن تقذف كالزنديق.

فقد كل الحيل والسبل في تجنب تلك المعارك الضارية والضربات القاضية التي أنهكت قلبه وعقله وروحه حتى أصبح طفلا يسكنه ألف شيخ. كاد أن يموت كل مساء ألاف المرات في وحدته النفسية لولا بعض الكلمات الحانية التي يسمعها من أهله وبعض من أخلائه وأصدقائه والتي تقع على قلبه المحترق كقطرات الندي فيصبح كالطفل البريء.

كاد أن يختنق لولا سحر الدعاء ونداؤه المتكرر برعاية تهبط عليه من السماء فيصبح كالنخل الناضب الذي يطرح ثمره من جديد.

وفي النهاية قرر ألا يستسلم للمعارك الضارية ومعاول الضربات المتوالية. قرر ألا يموت حيًا وسط ركام النفايات النفسية وركام الذكريات العاتية. قرر أن يرحل خلسة ويترك المكان ويهجر الناس ويعتزل الأحداث في صمت حتى تهبط عليه رحمة من السماء. قرر أن يكون بعيدا لعل البعد يكون فيه سر الدواء.

وبالفعل جمع أشلاءه النفسية وبعضًا من حطام ذكرياته وشعلة في يديه وكتابًا وقلمًا في جيبه وبعض الأوراق تحت إبطيه وخرج ليلًا بمفرده يبحث عن مأوي له بعيدا عن كل الناس لعل مطارقهم تنسي أديم قلبه وعقله ويعيش ولو بضعة أيام في أمان نفسي وسلام يبحث عنهما من سنوات عجاف.

مشي طويلًا حتى أنهكته خطواته فأصبح وسط الطريق وحيدا كالفرخ المذبوح. ظل يجاهد ويجاهد حتى وصل إلى جانب الطريق ليختفي وراء تلة صغيرة طلبا للأمان. وما إن وصل بالقرب من التل حتى حدث ما لا يحمد عقباه...

وما إن أراح جسده المتعب أسفل جدار التل حتى وجد نفسه ينزلق في نفق مظلم عميق يغوص إلى قاع الأرض. ظل يتدحرج فيه وهو لا يدري يمينه من شماله ولا فوقه من تحته.

انطفأت الشعلة التي كانت بيده وتمزق الكتاب وفقد القلم والأوراق فتاه منه كل شيء وتاه كله في اللاشيء. استمر في الانزلاق في هذا النفق المظلم وقد تحول إلى كرة جسدية من ظلمة وفي ظلمة. تمني لو ينتحر ليتخلص من هذا الفقدان والكرب النفسي والجسدي ولكن حتى الانتحار ليس في الإمكان فهو لا يستطيع حتى أن يتحكم في جوارحه.

شعر في هذا النفق المظلم أنها النهاية التي لن يخرج منها حيا فترك نفسه تتدحرج مع جسده وتنقلب آلاف المرات في دهاليز النفق. وعندما بدأت سرعة انزلاقه تقل رويدا رويدا حاول جاهدا أن يستجمع قواه العقلية والنفسية ليدعو وهو مغمض العينين بكل الأدعية التي تأتي على لسانه أو خاطره لعل الله يكشف عنه هذا الكرب ويخرج من هذا النفق المظلم السحيق.

لم يتصور أبدا أن يكون قراره بالابتعاد ولو قليلا عن الناس ليتجنب ضرباتهم الموجعة يأخذه إلى ضربات أشد على جسده وعلى نفسه المتعبة. ردد في نفسه كل الدعوات وحاول تذكر ولو عملا صالحا واحدا فعله عن إخلاص في مساعدة الآخرين لعله يكون قربانا إلى الله فيتقبله ويخرجه من هذا النفق الرهيب.

ولكنه كلما أدار رأسه يمينًا أو شمالا لا يري إلا ظلمة في ظلمة حتى أنه لا يستطيع رؤية أنامله وهي تنبش في كل اتجاه لعلها تجد بصيصا من نور يؤنسها ويبشرها ببصيص من أمل الخروج من هذا النفق.

وهو في وسط هذه الظلمة المخيفة تذكر تلك الساعات القاسية والضربات النفسية هناك بين الناس فكم كانت أهون عليه مما هو فيه الآن. تمني لو عادت به الحياة فيتلقى أضعاف الضربات التي كان يظن أنها موجعة لجسده ونفسه ولا يكون هنا في هذا النفق المظلم ولو لحظة واحدة.

تذكر تلك الأيام الخوالي التي حاول الهرب منها من نفسه وممن حوله ظنا منه أنها الأسوأ في الحياة وتمني لو تعود فقط ليكون بين الناس. تمني في نفسه ولو وقفة واحدة بين أجساد الناس يشعر فيها بأنفاسهم ورائحة عرقهم ورذاذ كلماتهم لتدب فيه الحياة وتهجره الوحدة ولو للحظات.

تمني لو يصاب بحالة بالإغماء حتى لا يشعر بذلك الخوف الذي يرعبه والوحدة التي تسكنه في هذا النفق. ولكن الإغماء أصبح حلما مستحيلا. تمني لو يغمض عينيه ليغوص في حلم من أحلام اليقظة يعيش فيه ولو لحظات يكون فيها بين الناس، وبعيدا عن هذا النفق الذي لا يدري كيف انزلق إليه؟ وكيف الخروج منه ومتي نهايته؟ ولكن حلم اليقظة أصبح من المستحيلات.

بدأ جسده يخور ونفسه تتحلل من الخوف والوحدة فبكي وانتحب لعل بكاءه يواسيه عما فيه من سوء الحال. وفي وسط نحيبه، نذر نذرا لله بأن يجعل من حياته شعلة تضئ حياة الآخرين لو خرج من هذا النفق المظلم وعاد مرة أخرى وسط الناس ولو مشي بينهم على أرض من المسامير والأشواك.

علا نحيبه على صوت هذا النذر الذي ملأ فراغه بداخله فتعلق بحروفه وكلماته وتمني لو كان فيها آخر أمل في النجاة من هذا الكرب العظيم.

تذكر سيدنا يونس وهو في بطن الحوت العظيم وكيف أن الله نجاه بمعجزة من عنده حتى لفظه الحوت على اليم. تمني لو يلفظه النفق بمعجزة إلهية كما لفظ الحوت ذا النون. وما إن تذكر قصة سيدنا يونس في كربه حتى انهالت على نفسه قصص كرب الأنبياء والصالحين وهم في شدة من كربهم حتى خفف الله عنهم وأزاح الخوف والهم والحزن من

قلوبهم. تمني لو كان نبيا أو رجلا صالحا ليخفف الله عنه هذا الكرب العظيم، ولكنه ليس بنبي ولا برجل صالح يتَبعه الناس.

تذكر النذر وتعلق بحباله وتمني لو يقبله الله ويخرجه من هذا الكرب العظيم.

وهو يُمني نفسه بالنذر فوجئ بالنفق يضيق ويضيق ثم يهبط به سريعا في أعماق الأرض. لم يبك فلم يعد للبكاء سر ولا غرض بعد أن فقد الأمل في النجاة. استسلم وأسلم جسده ونفسه للنفق يفعل فيهما ما يشاء.

وفي وسط هذا الاستسلام التام للنهاية المظلمة والوحدة الضارية وبعد لحظات قصيرة عاشها بطول الدهر، فوجئ بالنفق يلفظه من بطنه كما لفظ الحوت ذا النون على اليم ليجد نفسه في العراء على حافة سور عظيم يطل على عالم كبير وواسع لم ير مثله من قبل.

وقف يترنح فوق حافة السور الشاهق؛ خوفا من الانزلاق فيقع فريسة تحت أقدام البشر وهم لا يشعرون. نظر تحت قدميه فملأه الخوف والرعب وهو في هذا الارتفاع الشاهق وخلفه النفق المظلم وتحته هناك أرض واسعة لكنها بعيدة بعد السماء.

تعجب كيف للإنسان أن يخرج من نفق مظلم إلى نفق مفتوح؟! وفي كليهما قلق وخوف. وهنا حدث ما يحمد أو لا يحمد عقباه...

وقف حائرا على السور الشاهق والذي يبدو في الأفق كخيط رفيع يدور حول المدينة التي تبدو له من هذا الارتفاع الهائل كإناء واسع

عميق مملوء بكل أنواع الحياة المتصارعة من رجال ونساء وأطفال وشباب وشيوخ وأشجار ومزارع.

يكاد يري كل هذه الحياة هناك بعيدا من فوق السور كرسوم متحركة، ولا يستطيع أن يَتَبينها من هذا العلو الكبير بعينيه الزائغتين من النصب والخوف والقلق الذي لم يفارقه منذ الصباح حتى الآن. رحلة مخيفة داخل النفق المظلم الذي ما إن خرج من جوفه حتى وجد نفسه فوق هذا السور الشاهق وحيدا في بطن السماء.

وقف في حرص محاولا التماسك والتوازن حتى لا يسقط صريعا في الهوة السحيقة التي يقف على حافتها. ظل يلوح بيديه يمنة ويسرة لعل أحد يراه وينقذه ولكن لا أحد حواليه هنا في هذا العلو الشاهق ولا من تحته في هذا العمق السحيق والجو حوله حارق في درجة حرارته، والرطوبة تكتم أنفاسه حتى كاد أن يختنق.

ضربته حرارة الشمس حتى همدت محاولاته في الإنقاذ رويدا رويدا، فوقع جسده على السور، فأمسك به متمسكا بالأمل. وبعد ساعات جاءته رحمة من السماء ليخرج من الصراعات التي تنتابه ولا يجد من يواسيه، أفاق. ولما فتح عينيه وجد الشمس تغرب غير عابئة بوحدته.

نظر حوله فوجد نفسه مازال وحيدا. تماسك حتى وقف على قدميه وبدأ يبتهل إلى السماء بشدة حتى بكي وانتحب من شدة الدعاء والبكاء. بالرغم من إدراكه عدم وجود أسباب تنقذه لكن الأمل لا يفارقه إلا أنه تعلق بكل كلمة يدعو بها السماء؛ ظنا منه أن فيها الخلاص من هذا الخطر.

فجأة والظلمة تتساقط على المكان رويدا رويدا والصقيع يزحف بقوة، وجد شعلات من النار تظهر من فوهات على سطح السور وترتفع رويدا رويدا حتى بدأ الظلام حوله يتبدد رويدا رويدا.

بدأ الأمل يتسلل إلى قلبه أيضا رويدا رويدا، لكن كيف له أن يصل إلى إحدى هذه الشعلات التي أصبحت هي أداة الإنقاذ الوحيدة؟! أراد أن يلوح بها لعل أحد هناك في الأسفل يراه فيفعل شيئا ويخلصه. زحف على بطنه على حافة السور الضيق خوفا من السقوط وكأن من بناه قصد ألا يزيد اتساعه عن عرض هذا الجسد النحيل.

وهو يزحف بحرص شديد، تعجب من هول هذه المحنة وكل هذا العذاب الذي أصابه منذ أمس بالرغم من أنه لم يكن يريد إلا أن يبتعد عن الضربات التي كانت تنهال عليه ويهرب من كل المنغصات تاركا الكل وراءه حتى تهدأ نفسه وترتاح.

تعجب كيف لنفسه أن تهرب من ضربات الناس إلى ضربات أقصي وأشد، ضربات من الطبيعة بعيدا عن أيدي الناس. أيهرب الإنسان من قدر يخشاه فيغوص في قضاء يقتله ببطء؟!

تعجب من كل ما حدث له في بطن النفق، وما يحدث له الآن هنا فوق هذا السور الشاهق. تساءل في نفسه، يا تري ما هذا الذنب الكبير الذي اقترفته في حق الله أو في حق غيري من الناس لأتعرض لهذا العذاب الكبير؟

أخذ يقلب في نفسه لعله يتذكر ذنبا كبيرا ولكنه لا يتذكر إلا ذنوبا كذنوب معظم البشر والتي تاب عنها واستغفر وأناب بعد كل معصية أو ذنب اقترفه. لكن نفسه هاجت في نفسه فرأي كل ذنب اقترفه بعظم الجبال. عاد يدعو ويبتهل إلى السماء آلاف المرات أن تقبل توبته لعل الله يفتح له بابا من حيث لا يحتسب.

اقترب بحرص وتؤدة من إحدى الشعلات الهائلة الكثيرة المزروعة كل عدة أمتار والتي برزت من بطن السور عندما غربت الشمس حتى بدت كل منها كالشمس المشرقة من بطن السماء. ولما كاد أن يصل إلى أقرب شعلة ليهتدي بضوئها ويدفئ روحه وجسده بحرارتها، فوجئ بحرارة تكاد تحرقه من فوقه لتحته.

وقف ليس ببعيد يتفحصها متمنيا أن يجد سبيلا ليمسكها ويحملها؛ ليلوح بها في الأفق لعل أحد في قاع هذا العمق السحيق يراه ويفعل شيئا لإنقاذه. ولكن لا حيلة أمامه والشعلة هائلة وحرارتها لاسعة.

وقف مكتوف الأيدي ناظرا على الناس تحت قدميه في هذه المدينة الواسعة والبعيدة عن منال يديه. بدا له الناس في حجم أسراب النمل التي تسلك سبيلها في كل الجهات. تمني لو يلقي نفسه من هذا الارتفاع الشاهق وليكن ما يكون حتى ولو تحطمت عظامه لينهي هذا العناء وتلك الوحدة والحيرة.

ولكن نفسه لم تهن عليه كما هانت وهو في بطن النفق عندما فكر في الانتحار فهو الآن يري العالم ولديه أمل في الخلاص والرجوع إلى عالمه.

وهو مستسلم لظلمة المساء وحرارة الشعلات، فوجئ بفوهات في جوانب الشعلات تحوي داخلها شعلات أصغر. امتلأت روحه بالفرحة فاقترب إلى أقرب شعلة وقبض عليها بقوة وانتزعها من مكانها وابتعد في خفة قبل أن تحرقه لسعات الحرارة المنبعثة من حوض الشعلة الكبيرة. شعر بأنه أمسك بعنق الحياة في يديه وأنها آخر فرصة للخلاص.

فوجئ بأنه كلما لوح بيده يمنة أو يسرة تتمدد الشعلة فتطول أو تقصر وتكبر أو تصغر وكأنها شعلة سحرية صنعها القدر بعناية. ولما مدها بكل طولها وبطول ذراعه في اتجاه الناس هناك في القاع فوجئ بخروج ألسنة هائلة من النيران تقرب له هامات الناس وتبينها حتى يكاد أن يري ملامح الوجوه.

تعجب كيف يحدث هذا؟! وما كل هذا السحر الكامن في هذه الشعلات الصغيرة وكأنها أدوات استخباراتية أو خيال علمي.

وقف مأخوذا من هول المفاجأة؛ فالشعلة ليس فقط قادرة على إضاءة الظلمة وتكبير الأشياء وتقريب الوجوه، ولكن أيضا بمقدورها أن تكون سوطا حاميا يلهب ظهر من يريد بل ويتعدى الأمر إلى تشويه الوجوه وحرق الأجساد والديار إذا أراد دون أن يعلم أحد أو يدرك من الفاعل هنا فوق هذا السور الشاهق. بل تعدي الأمر بأن يد الشعلة تتحول إلى عصا طويلة وقوية يستطيع بها الهبوط بسلام على أرض المدينة التي تموج بالناس كبيرهم وصغيرهم هناك تحت قدميه.

تعجب كيف تهيئ له السماء كل هذه الأسباب ليس فقط للخلاص من محنته التي ظن أنها النهاية الحتمية والمؤلمة لحياته بعيدا عن أهله وجيرانه وأصدقائه وأعدائه بل أيضا إلى أداة للعقاب والنيل ممن خاصموه ونكلوا به وأوجعوه بالضربات المبرحة والتي بسببها فر من مدينته طلبا في الهدوء والسكينة. الضربات التي بسببها ترك وراءه كل شيء فابتلعه النفق المظلم لساعات مظلمة حتى لفظه في العراء فوق سور شاهق في وحدة مخيفة يعلوها الحر الحارق والبرد القارص.

والشعلة في يديه تنير له الطريق وتفتح له الأبواب كسيف ماض، وقف يتأمل الموقف. هل يهبط بسلام دون أن يدري به أحد فيعود إلى سالف حياته؟ أم ينتقم ويعاقب من أهالوا عليه الضربات وهم لا يدرون من المنتقم ثم يهبط بسلام؟ وقف يتأمل الموقف والشعلة في يده والحيرة في عقله والحنين والصفح في قلبه.

ولم تمض لحظات قصيرة حتى اهتدى إلى القرار.

وقف حائرا على السور الشاهق والذي يبدو في الأفق كخيط رفيع يدور حول إناء واسع عميق مملوء بكل أنواع الحياة المتصارعة من رجال ونساء وأطفال وشباب وشيوخ وأشجار ومزارع. يكاد يري كل هذه الحياة هناك بعيدا من فوق السور كرسوم متحركة ولا يستطيع أن يَتَبينها من هذا العلو الكبير بعينيه الزائغتين من النصب والخوف والقلق الذي لم يفارقه منذ الصباح حتى الآن طوال رحلته المخيفة من النفق

المظلم الذي لفظه من جوفه ليجد نفسه فوق هذا السور الشاهق وحيدا في بطن السماء.

وقف في حرص محاولا التماسك والتوازن حتى لا يسقط صريعا في الهوة السحيقة التي يقف على حافتها. وقف يلوح بيديه يمنة ويسرة لعل أحد يراه وينقذه ولكن لا أحد حواليه هنا في هذا العلو الشاهق ولا تحته في العمق السحيق والجو حارق في درجة حرارته والرطوبة تكتم أنفاسه حتى كاد أن يختنق.

ضربته حرارة الشمس حتى همدت محاولاته في الإنقاذ رويدا رويدا فوقع جسده على السور فأمسك به متمسكا بالأمل. وبعد ساعات جاءته رحمة من السماء ليخرج من الصراعات التي تنتابه ولا يحد من يواسيه، أفاق وفتح عينيه فوجد الشمس تغرب غير عابئة بوحدته. نظر حوله فوجد نفسه مازال وحيدا.

تماسك حتى وقف على قدميه وبدأ يبتهل إلى السماء بشدة حتى بكي وانتحب من شدة الدعاء والبكاء.

تعلق بكل كلمة يدعو بها السماء ظنا منه أن فيها الخلاص من هذا الخطر المحدق بالرغم من إدراكه لعدم وجود أسباب تنقذه ولكن الأمل لا يفارقه.

فجأة والظلمة تتساقط على المكان رويدا رويدا والصقيع يزحف بقوة، وجد شعلات من النار تظهر من فوهات من سطح السور وترتفع رويدا رويدا حتى بدأ الظلام حوله يتبدد أيضا رويدا رويدا.

بدأ الأمل يتسلل إلى قلبه أيضا رويدا رويدا ولكن كيف له أن يصل إلى إحدى هذه الشعلات التي أصبحت هي أداة الإنقاذ الوحيد التي يستطيع أن يلوح بها لعل أحد هناك في الأسفل يراه فيفعل شيئا؟! زحف على بطنه على حافة السور الضيق وكأن من بناه قصد ألا يزيد اتساعه عن عرض هذا الجسد النحيل الذي يزحف عليه الآن خوفا من السقوط.

وهو يزحف بحرص شديد، تعجب من هول هذه المحنة وكل هذا العذاب الذي أصابه منذ أمس بالرغم من أنه لم يكن يريد إلا أن يؤثر الضربات التي تنهال عليه فيبتعد عن كل المنغصات تاركا الكل وراءه حتى تهدأ نفسه وترتاح. تعجب كيف لنفسه الرهيفة أن تهرب من ضربات الناس إلى ضربات أقصي وأشد، ضربات من الطبيعة بعيدا عن أيدي الناس. أيهرب الإنسان من قدر يخشاه فيغوص في قضاء يقتله ببطء.

تعجب من كل ما حدث له في بطن النفق وما يحدث له الآن هنا فوق هذا السور الشاهق. تساءل في نفسه، يا تري ما هذا الذنب الكبير الذي اقترفته في حق الله أو في حق غيري من الناس لأتعرض لهذا العذاب الكبير. أخذ يقلب في نفسه لعله يتذكر ذنبا كبيرا ولكنه لا يتذكر إلا ذنوبا كذنوب معظم البشر والتي تاب عنها واستغفر وأناب بعد كل معصية أو ذنب اقترفه.

هاجت نفسه فرأي الآن كل ذنب اقترفه بعظم الجبال فعاد يدعوا ويبتهل إلى السماء أن تقبل توبته آلاف المرات لعل الله يفتح له بابا من حيث لا يحتسب.

اقترب بحرص وتؤدة من إحدى الشعلات الهائلة والكثيرة المزروعة كل عدة أمتار في السور والتي برزت من بطن السور عندما غربت الشمس حتى بدت كل منها كالشمس المشرقة من بطن السماء. ولما كاد أن يصل إلى أقرب شعلة منه ليهتدي بضوئها ويدفئ روحه وجسده بحرارتها، فوجئ بحرارة تكاد تحرقه من فوقه لتحته.

وقف ليس ببعيد يتفحصها متمنيا أن يجد سبيلا ليمسكها ويحملها ليلوح بها في الأفق لعل أحد في قاع هذا العمق السحيق يراه ويفعل شيئا لإنقاذه. ولكن لا حيلة أمامه والشعلة هائلة وحرارتها لاسعة. وقف مكتوف الأيدي ناظرا على الناس تحت قدميه في هذه المدينة الواسعة والبعيدة عن مناله. بدا له الناس في حجم أسراب النمل التي تسلك سبيلها في كل الجهات.

تمني لو يلقي نفسه من هذا الارتفاع الشاهق وليكن ما يكون ولو تحطمت عظامه وينهي هذا العناء وتلك الوحدة والحيرة. ولكن نفسه لم تهن عليه كما هانت وهو في بطن النفق فهو الآن يري العالم ولديه أمل في الخلاص والرجوع إلى عالمه.

وهو مستسلم لظلمة المساء وحرارة الشعلات، فوجئ بفوهات في جوانب الشعلات تحوي داخلها شعلات صغيرة. امتلأت روحه

بالفرحة فاقترب من الشعلة بالقرب منه ومد يده وأمسك بإحدى الشعلات الصغيرة وقبض عليها بقوة وانتزعها من مكانها وابتعد في خفة قبل أن تحرقه لسعات الحرارة المنبعثة من حوض الشعلة الكبيرة.

شعر بأنه أمسك بعنق الحياة في يديه وأنها آخر فرصة للخلاص. فوجئ بأنه كلما لوح بيده بالسهلة يمنة أو شمالا تتمدد الشعلة فتطول أو تقصر وتكبر أو تصغر وكأنها شعلة سحرية صنعها القدر بعناية. ولما مدها بكل طولها نحو محيط الناس تحت قدميه فوجئ بخروج ألسنة هائلة من النيران تقرب له هامات الناس وتبينها حتى يكاد أن يري ملامح الوجوه.

تعجب كيف يحدث هذا، وما كل هذا السحر الكامن في هذه الشعلات الصغيرة وكأنها أدوات استخباراتية ليس لاحد بها من سبيل.

وقف مأخوذا من هول المفاجأة، فالشعلة ليس فقط قادرة على إضاءة الظلمة وتكبير الأشياء وتقريب الوجوه ولكن أيضا بمقدورها أن تكون سوطا حاميا يلهب ظهور من يريد بل ويتعدى الأمر إلى تشويه الوجوه وحرق الأجساد والديار إذا أراد دون أن يعلم أحد أو يدرك من الفاعل هنا فوق هذا السور الشاهق.

بل تعدي الأمر بأن يد الشعلة تتحول إلى عصا طويلة وقوية يستطيع بها الهبوط بسلام على أرض المدينة التي تموج بالناس كبيرهم وصغيرهم هناك تحت قدميه.

تعجب كيف تهيأ له السماء كل هذه الأسباب ليس فقط للخلاص من محنته التي ظن أنها النهاية الحتمية والمؤلمة لحياته بعيدا عن أهله

وجيرانه وأصدقائه وأعدائه بل أيضا إلى أداة للعقاب والنيل ممن خاصموه ونكلوا به وأودعوه بالضربات المبرحة والتي بسببها فر من مدينته طلبا في الهدوء والسكينة. الضربات التي بسببها ترك وراءه كل شيء فابتلعه النفق المظلم لساعات مظلمة قبل أن يلفظه في العراء فوق سور شاهق في وحدة مخيفة يعلوها الحر الحارق طوال النهار والبرد القارص طوال الليل.

والشعلة في يديه تنير له الطريق وتفتح له الأبواب كالسيف الماضي، وكألف مدفع يستطيع أن يصوبه على من يشاء، وقف يتأمل الموقف. هل يهبط بسلام دون أن يدري به أحد فيعود إلى سالف حياته أم ينتقم أولا ويعاقب من أهالوا عليه الضربات وهم لا يدرون من المنتقم ثم يهبط بسلام. وقف يتأمل الموقف والشعلة في يده والحيرة في عقله والحنين والصفح في عقله.

ولم تمض لحظات قصيرة حتى أهتدي إلى القرار. فرغم كل الدعوات التي كان يرددها ويبتهل بها إلى السماء وهو محاط بظلمة النفق، وهو على حافة السور خوفا من السقوط وطالبا الخلاص من الشدة التي أحاطت به من فوقه وجانبيه وتحته، تغلب عليه شيطانه وأنساه الشيطان الدعوات. قرر الانتقام من كل الذين حسبهم ظالمين وجبارين وكل من أوجعوه ضربا حتى أدمت روحه الضربات.

نظر بعصاه على الجموع هناك ليتفحص هؤلاء الظلمة ليصوب سلاحه البتار عليهم؛ ليميتهم إما صعقا أو حرقا كما يشاء. ولم يجد عناء

في التعرف عليهم بالرغم أنهم منتشرون في كل مكان هناك، فمنهم من يمشي في زهو وسط الناس، ومنهم من يقف على حافة الجموع، ومنهم من هو محمول فوق الأعناق، ومنهم من يجلس هناك في مكتبه الوثير يأمر وينهي كيفما يشاء وحوله عبيد القرارات.

سال لعابه فقد جاءت فرصته لينتقم من كل من سولت له نفسه إيذائه نفسيا كان أو وظيفيا. لم يكن يتصور أبدا أن تدور الأحداث بهذه الوتيرة وصوت حول لصالحه هذا التحول المفاجئ الكبير. لم يكن يتصور أن يخرج من النفق المظلم إلى النور فقد كانت كل أمنياته أن يخرج من النفق معافي.

لم يكن يتصور أن خوفه من السقوط من على السور يتحول إلى قدرة فائقة على التحكم في ما فوق وتحت السور. لم يكن يتوقع أن يعود إلى أهله منصورا بدلا من أن يكون منثورا. كلما تخيل الخوف في قلوب من ظلموه وهو يضربهم والهلع يسكن عيونهم كلما سال لعابه وتهيأ لضربهم واحدا واحدا بتلذذ شديد.

نظر إلى الجموع نظرة أخيرة ليتحقق من أماكنهم ورأسه تدور فيمن يكون أولهم ليضربه. بدا له الجميع كرؤوس يانعة سهلة القطع بعصاه السحرية ليتركهم كأعجاز نخل خاوية.

عندما حدد أحد الظلمة الطغاة الذي طالما ذاق منه طعم الظلم والقسوة هم بضربه ضربة موجعة. لكنه فجأة توقف بعد أن رأي رؤوسا أخرى هناك يعرفها جيدا. رؤوسا لأناس مثله نالوا من الظلم والقهر

لكنهم مازالوا هناك يعانون ويهيمون على وجوههم وسط وبجانب هؤلاء. توقف يفكر ولا يدري ماذا يفعل. فلو ضرب الأعناق فقد تطير الرؤوس الأخرى على أعناق من يعرفهم.

وإن لم يضرب بعصاه ليتخلص من هؤلاء العتاة راحت عليه الفرصة وعاد إلى حيث كان بينهم. تحير في أمره خاصة بعد أن رأي أطفالًا هنا وهناك. زادت حيرته خاصة أنه لا يدري ما إذا كان السحر الكامن في تلك العصاة بيده سوف يستمر بعد هبوطه هنالك بين الناس أم مفعوله هنا فقط على هذا السور.

لا يوجد هنا أحد ليسأله، هو فقط هنا على هذا السور الذي كادت أشعة الشمس الحارقة أن تفلقه إلى نصفين.

عليه أن يسرع القرار؛ ليستخدم العصا في الهبوط لساحة مدينته؛ ليفر من هذه الوحدة القاتلة قبل أن يرحل النهار وقد يرحل معه مفعول العصا السحرية.

وأخيرا كان القرار بعد تفكير عميق. قرر أن يهبط سالما في ساحة المدينة بعيدا عن الناس حتى لا يفتنوا بعصاه. قرر ألا يضرب الأعناق ولا ينتقم من أي من أعداءه ليس فقط من أجل تجنب إيذاء أصدقاءه وإيذاء الأطفال ولكن أيضًا لتجنب مشاعر الانتقام حتى وإن ملك العقاب. أمسك بعصاه بقوة وتهيأ للهبوط وسمي الله ونظر إلى ساحة المدينة البعيدة وأطلق جسده يلف حول العصا بهدوء حتى لامست قدماه أرض مدينته التي كان قد فقد الأمل أن يراها ثانية.

وما أن هبط حتى خر ساجدا ليحمد الله. جري نحوه أصدقاؤه يسألونه أين كنت يا رفيق؟ لقد بحثنا عنك في كل مكان منذ أول أمس ولكن الحمد لله أنك بخير. رآه أحدهم مشيرا إليه أمرًا بالمثول بين يديه. رمي العصا دون أن يكلف نفسه معرفة ما إذا كان مفعول السحر فيها مازال موجودا.

لم يَعبأ بالعصا ولكنه شد عنقه ورفع رأسه عاليا متحديا نفس الرجل الذي أذاقه المُر مرات ومرات. وقف كالفهد غير عابئ بالنظرات الغاضبة التي يتطاير معها الشرر من عيني الرجل.

لم يعبأ رفيق بأوامر الرجل الغاضب بل أمسك بيده وكأن سحر العصاة انتقل إلى يديه ولسانه وشفتيه. وصاح في وجهه بتفاصيل نشرة أخبار الفساد التي لم يشأ أن يعلنها قبل اليوم. ولكنه فعلها وعلا صوته على الملأ وبدأ الناس يتهافتون.

تعجب الرجل من اندفاع رفيق هذا الذي لم يكن أبدا ليتوقع أن يعلن عن نفسه هكذا، حاول أن يسكته عن الكلام لكن رفيق لم يتوقف. حاول أن يقيد يديه لما وجد الناس يتدافعون ليروا ما هناك، ولكن رفيق لم يستكن بل قام هو بتقييد يد الرجل بسهولة بالغة.

فوجئ رفاق رفيق أن شركاء الرجل يهرعون إلى المكان واحدا وراء الآخر محاولين أن يعضدوا صاحبهم الذي وقف بين الجميع لا حول له ولا قوة ويبدوا ضعيفا منهارا ومغلوبا على أمره.

تكاثر شركاء الرجل واستقوا بأنفسهم ضد رفيق وهموا بالتطاول عليه ليسكتوه بالقوة. ولكن رفيق كلما حاولوا إسكاته استقوي بالحق في جوفه وقلبه وعقله فعلا صوته.

ولما هم الرجل وشركاؤه في الظلم والتنكيل والفساد أن يضربوا رفيقًا، تصدي لهم وبقوة بمفرده ولم يبال بالآلام المبرحة لضربات أيديهم واستمر في إعلان نشرة الفساد التي عرتهم تماما حتى كادوا أن يجنوا من جنون رفيق المفاجئ. وهنا فوجئ شركاء الرجل بمئات الأيادي تنهال على رؤوسهم حتى كاد أن يفتك بهم أصدقاء رفيق الذين تكاثروا واستقووا بصوت الحق الذي يجلجل في كلمات رفيق.

استمرت المعركة بين الحق والباطل لبضع دقائق انتهت لصالح رفيق وأصدقائه حتى أسكتوا تماما الرجل وشركاءه. لم يصدق الجميع ما حدث فلم يكن يجرؤ أحد على فعل ذلك أبدا، إما خوفا وإما للتعود على الظلم الذي تحول عند الكثير إلى الشعور باللامبالاة. إلا رفيق، هو الوحيد الذي صدق ما فعل بعد قصة صمت ووجع وهروب ثم التمرد والإعلان عن المواجهة التي تأخرت سنوات طوالًا، ولكن يكفي أنها حدثت أمام الجميع بعد أن طلق الخوف.

التف الجميع حول رفيق يحمسونه ويدفعونه لمزيد من المواجهة في هذه اللحظات التي قد لا تأتي ثانية أبدا.

وقف رفيق وسط الجميع وقد استعاد هدوءه ووقاره، كفي أيها الأصدقاء ما حدث لكشف القليل من الكثير ولنترك القانون يأخذ مجراه تحت إشراف رجال الدولة.

رد الجميع بصوت غاضب: لكننا نملك فرصة كبيرة لإنهاء كل ما كان يا رفيق، فلماذا نتراجع عن المكاسب؟ علينا أن نُجهز عليهم جميعا بكل الطرق لنتخلص منهم.

- لا يا رفاق، نحن لسنا في ثورة. ما قمت به هو نوع من البلاغ العام مصحوبا بالتمرد على صمتي وكتماني للحق سنوات طوالًا وتحملي لآلام الهمز واللمز والظلم والإهمال طيلة أيام عجاف.

انظروا إلى هذه العصا في يدي، هي التي حملها القدر لي لينقذني مما كنت فيه من تيه ووحدة وظلام.

هذه العصا بها سحر لو استخدمته لعذبت وقتلت هذا الرجل الفاسد وكل شركائه عن بُعد ودون أن يشعروا ودون أن تدركوا أنتم من الفاعل. ولكني عندما هممت بفعل ذلك تحت ضغط الانتقام، وتحت شهية التخلص من الفساد واقتلاعه، وأنا هناك بعيدا فوق هذا السور الشاهق، تراجعت عن قرار الانتقام المجهول وقررت المواجهة بدون العصا حتى ولو خسرت المعركة.

- إذا كانت العصا فيها سحر هكذا فدعنا نفعل بها ما لم نستطع عليه صبرا ولا فعلا طوال السنوات الماضية، أعطها لنا يا رفيق.

رفع رفيق العصا الساحرة ولوح بها في الهواء ليريهم كيف أنها تمتلك كل تكنولوجيا العالم الرقمية و(إنترنت) الأشياء والتي يستطيع أن يفعل بها ما يشاء.

ظن الجميع أنه وافق على إعطائهم العصا وتحمسوا لها بشدة بعد أن رأوا التكنولوجيا الخفية بها. وتقدم إليه أحدهم ليأخذ العصا من رفيق.

فوجئ الجميع برفيق يطوح العصا بكل قوته ناحية السور الشاهق لتنطلق من يديه وكأنها قذيفة لتستقر هناك خلف السور بعيدا عن قدرات الجميع.

غضب الجميع من فعلة رفيق فقد فقدوا التكنولوجيا التي كانوا بها قادرين على فعل المستحيل مع شركاء الفساد: لماذا فعلت ذلك يا رفيق؟ أنسيت الظلم الذي وقع علينا من هؤلاء عبدة المال والجاه؟ أنسيت ماذا يمكن أن يفعلوه لو قامت قيامتهم مرة أخرى؟

- يا رفاق، القوة ليست في تكنولوجيا أو سحر عصا، القوة في التمسك بالحق والإعلان عن الحق والإبلاغ عن الفساد والظلم لأهل الأمر كلما رأيناه. القوة هي في الإعلان عن الحق في أنفسنا ليس فقط بالكلام ولكن بالعمل الذي يجعلنا نصنع ألف عصا بكل ما نتمناه.

يا رفاق، العيب هو الانعزال والصمت تحت وطأة الآلام المبرحة والهروب من ساحة الميدان. القوة في الصمود والإعلان عن أهل الفساد أمام أهل الأمر ليحق الحق ويستقر ولا يهان.

يا رفاق، الخوف والصمت عبيدين للظلم، والصراحة والعمل رجلين للحق. وإذا كان الخوف درجات فإن الحق درجة واحدة في كل المواقع والمواقف. فلن تخلص من الخوف ولنكن رجالا لأهل الحق.

- وأين تعلمت هذه الفلسفة الجديدة يا رفيق، عهدناك صبورا وصامتا ومتحمسا الكثير من ألوان وآلام الظلم، ماذا حدث!!

- حدث أني ذقت الخوف الأصغر وأنا هنا بينكم وبين هؤلاء الظلمة، فعالجت ظلمي وقهري بسكوتي وصمتي حتى كدت أن انفجرت فلم أتحمل وهربت. وهناك بعيدا وراء هذه المدينة وجدت نفسي هاربا من خوف أصغر إلى جبال من الخوف الأكبر من الوحدة والظلمة والمجهول داخل إما أنفاق مظلمة ليس لها نهاية أو سور شاهق وكأنه بني على حافة الشمس.

أدركت هناك أن ما نعانيه من الخوف الأصغر مهما كانت درجته لا تقارن بالخوف الأكبر الذي لم يخرجني منه سوي هذه العصا السحرية التي رميتها هناك.

- فكرتنا بالعصا يا رفيق، كيف تلقيها ونحن في حاجة إليها وأنت نفسك مؤكد سوف تحتاجها؟!

- أنا من الآن لست في حاجة إليها، أنا في حاجة لنفسي، قلبي ولساني وعقلي، وفي حاجة إليكم. أنا رميت العصا هناك لعلها تساعد أحدا بعدي قد يهرب هناك من خوفه الأصغر فيفاجأ بالخوف الأكبر. من

يرد العصا فليلق بنفسه هناك لعله يجدها ويأتي بها. أما أنا فكفي فقد تعلمت الدرس جيدا.

سكت الجميع على صوت سيارة البوليس التي وصلت على التو بعد أن قام أحد الأصدقاء بالاتصال بالبوليس والإبلاغ عما جري من أحداث بين الجميع.

توجه الضابط إلى رفيق موجها إلى بعض الأسئلة عما حدث من تراشق بالألفاظ والأيدي.

أقر رفيق بكل ما فعل هو وزملاؤه وشرح الأسباب بالتفصيل وبأثر رجعي.

تعجب الضابط من رفيق:

- كيف علمت بكل ذلك؟! ولماذا سكت وصمت كل هذا الوقت؟!

- لا أدري، ولكني كنت أبحث عن اللحظة الفاصلة حتى ساقها الله إلى.

- نشكرك يا سيد رفيق، فقد كنا أيضا نبحث عن اللحظة الفاصلة بعد أن وصلتنا شكاوى متعددة والتي تأكدنا منها لما تحرينا عنها. وكان موعد هذه اللحظة بعد غد. وها أنت قد عجلت بها. شكرا لك.

- ما أجمل توافق اللحظات يا حضرة الضابط، ولكني أتمنى أن تكون اللحظة دائمة ساهرة.

ابتسم الضابط الكبير وربت على كتف رفيق بإعجاب وتقدير وبابتسامة مطمئنة، اللحظة دائمًا ساهرة ولكنها تنتظر من رجال الحق

أن ينادوا عليها. ما فعلته اليوم يا سيد رفيق هو السحر. مرة أخرى شكرا لك وسوف نحتاجك بالتأكيد أثناء التحقيق.

وعينا رفيق على أصدقائه، شكر الضابط ورد بابتسامة مغلفة بضحكة كتمها عنه حتى لا يفضح سره: تحت أمرك سيادة العميد، ولا تقلق على اللحظة فإذا تأخرت ذهبت في نزهة وراء هذا الوادي ثم جئت إليك...

نظر الضابط بتعجب من رفيق ومن العلاقة بين النزهة واللحظة التي يقصدها... خاصة أنه يعلم ما وراء هذا الوادي من أماكن وعرة.

- لا داعي للتعجب سيادة العميد، أنا أمزح فقط فلن أبرح مكاني بعد اليوم وسوف أبحث عن اللحظة كل يوم...

ضحك الجميع وترك الضابط المكان بعد أن قبض على شركاء الفساد ولوح لرفيق وزملائه للقاء في قول الحقيقة في التحقيقات...

وما إن رحل الضابط حتى صاح أحد أصدقاء رفيق، خسارة العصا جدا يا رفيق، كنت أحتاجها بشدة.... لماذا رميتها...؟

ضحك رفيق بشدة من لهفة الرجل ونصحه أن يذهب للنزهة هناك وراء الوادي ويأتي بها...

صاح الرجل: لا لا، فلتسقط العصا...

ضحك الجميع والتقطوا صورة تذكارية ليسجلوا اللحظة...



أشواق بلا حدود

فجأة وبدون سابق إنذار وعلى غير العادة، شعر بالملل من الحاضر، ونسي الحنين إلى الماضي، وزهد الأمل في المستقبل.

قرر أن يلقي نفسه بين الكتب التي اقتناها أثناء مشوار العمر، لعله يجد فيها دواء يشفي تلك الحالة التي أصابته فجأة ولا يعرف لها سببا يذكر سوي كثرة العمل والتفكير والمهام هنا وهناك حتى فقد طعم الزمن ورائحة المكان من كثرة أعباء الحياة.

أخذ يقلب في الكتب النائمة على أرفف مكتبته العتيقة. لاحظ أن كل الكتب تنظر إليه برموش عناوينها في اكتئاب وحزن شديد على إهماله لها في مكتبته طوال الأعوام الماضية ولو بدون قصد. لم يعط اهتماما لا بعناوين الكتب ولا بلونها وشكلها أو حجمها. فقط، أراد أن

يبحث عن شيء بطريقة عشوائية ليقطع حبل الملل الذي يلتف حول عنقه.

ودون أن يدري وبدون قصد منه، توقفت يداه على غلاف كتاب عتيق يبرز قليلا من بين الكتب وكأنه أراد أن يُلفت نظره إليه.

تسللت ابتسامة إلى شفتيه عندما أمسك بهذا الكتاب العتيق، الذي تذكره الآن جيدا وتعجب كيف نسيه كل هذا الوقت الطويل؟ نفض التراب عن جسد الكتاب والغبار العالق بأوراقه الصفراء التي يزيد عمرها عن الثلاثين عامًا.

فتح الكتاب مقلبًا في صفحاته، فإذ به يفاجأ بتلك الوردة الحمراء بين صفحتين من صفحاته العتيقة والتي ما زالت تحتفظ بأريج عطرها وابتسامة وريقاتها الحمراء ناظرة إليه في خجل وحنين.

شعر بخجل شديد من نظرات وريقات الوردة إليه والحمرة التي تسكنها وكأنها صبغت حوافها بأحمر شفاه. وتحول شعوره بالخجل إلى إحساس بتأنيب الضمير عن الإهمال والفراق عن مشاعر كانت يوما نهرا عذبا جاريا بمياه الحب يغترف منه ويشرب كل صباح ومساء.

تلمس الوردة بحنان وحنين بالغ وحب دفين انتفض في قلبه وسري في عروقه وتدفق في أنامله وهي تتحسس حواف وريقاتها الخجلى برفق.

تذكر يديها الرقيقتين في ربيع العمر وهي تهديه هذا الكتاب "أشواق بلا حدود" ومعه وردة حمراء لم ير مثيلًا لها في لونها وعبيرها حتى الْيَوْمَ. تذكر تلة اللحظة التاريخية التي اعترفت ل فيها بحبها وهو

غير مصدق. كانت لحظة بالعمر كله طبعت على جدران قلبه نياشين العشق والهيام لأرق وأجمل نظرات في الوجود. تذكر تلك اللحظة التي جعلته يعشق كل الكتب أيا كان عنوانها، ويعشق كل الورود أيا كان لونها وعبيرها.

عاد به الزمن إلى الوراء أربعين عامًا عندما كان صبيا شب على حب كبير كان يظنه بعيد المنال عن قلبه فإذا بهذا الحب الكبير يهديه وردة حمراء بحمرة خدود كل الفتيات الخجليات ويفوح منها عبير حملته من ورد ربيع جنان العالم أجمع. تذكر تلك اللحظة وهو يقف أمام حبيبته الجميلة في خجل المُحب الذي غمرته نظرات الحبيب حتى غرق قلبه وتمني ألا يفيق من نشوة الحب حتى آخر العمر.

أمسك الكتاب برفق واحتضنه بكل صدره، ووضعه أمامه على مكتبه مباشرة كحجاب وحرز وطاقة نور ينظر بها من عالمه الثائر إلى عالم حبيبته التي أراد القدر في لحظة لم يكن أبدًا يتوقعها أن تترك فتات أحلامه العالم قبل أن تودعه. وضع الكتاب أمامه ليرافقه رحلة العمر القادمة، فيكفيه عبير يديها العالق في وريقات الوردة، ويكفيه بصمات أناملها التي عانقت غلاف الكتاب وقبلت أوراقه ولو شاخت صفحاتها مع الزمن فسيبقي حبها للأبد ولا يشيخ.

تعجب كيف للزهد في الماضي أن يتحول في لحظة إلى شغف وشوق وحنين؟!

وكيف للملل من الحاضر أن يتحول إلى حماس ويقين من جمال محمول على أجنحة المستقبل؟!

كيف لأحداث الحياة الثائرة أن تأخذنا بعيدًا عن أجمل ما فينا؟!

كيف للحاضر أن يشعر بالغيرة من الماضي فيتعمد أن ينسينا الذكريات التي لم تبرح الوجدان؟! كيف للقلوب أن تنسي نياشين الحب المعلقة على جدرانها؟! وتعجب كيف للماضي أن يكون وقودا للحاضر، وسفينة تبحر فوق أمواج المستقبل؟!

ربت على قلبه واحتضنه براحتيه وابتسم بملء شفتيه، وأمسك بعنق قلمه العتيق ليكتب عنوانا لروايته الجديدة "أشواق من الزمن الجميل" مهديا الرواية "إلى الحب الأول الذي يجري في عروقي، أهدي هذه الرواية التي تلتحف بكلماتها حبيبتي حتى تستيقظ ونلتقي ما بعد الزمان ومعنا عبير الأشواق".



التمرد على المشاعر

ارتدي بنطلونا أصفر فاقعًا لونه لا يسر الناظرين، وقميصًا برتقاليًا بأكمام بيضاء، وفوق رأسه طاقية بيضاء من قماش يجعل كل قطعة منها تتدلي من رأسه كيفما تشاء، ارتدي قبعة كالتي يستخدمها عمال البناء وسط الصحراء. ولم ينس أن يرتدي حذاءً كان قد تركه في خزينة الأحذية منذ عشر سنوات، حذاءً ليس له مثيل لا في الشكل ولا في الموضة، ولكن من حسن حظه، كما يظن هو، أن الحذاء مناسب تماما للحظة خاصة أنه مازال على قدر مقاس قدميه.

لم يكن في المنزل سواه منذ أسبوع، مما أتاح له الفرصة ليشتري القميص والبنطلون والقبعة من المحلات الشعبية بالمدينة، ويختار ألوانها كما يشاء دون أن يلحظ أحد. وقف أمام المرآة يتأمل نفسه

بإمعان ولذة شديدة وهو يرتدي ملابسه الجديدة في هدوء وسكينة بل وباستمتاع عجيب وكأنه يري ملامحه في المرآة لأول مرة.

لمس بأنامله ياقة القميص العريضة، والتي هي أيضا بلون أكمام القميص، بكل تؤدة ودقة وكأنه يضبط اللمسات الأخيرة في لوحة فنية انتهي من رسمها للتوّ. نظر بابتسامة هادئة واستمتاع إلى شعره الناعم والمسترسل على جبينه ووجنتيه. قرر أن يطرحه كله وبدون تصفيف "منكوشا" إلى الخلف، فبدا أكبر من عمره خمس سنوات في هذه التسريحة الجديدة والغريبة لشعره.

ألقي نظرة أخيرة على هندامه الذي بذل جهدا كبيرا ووقتا طويلا ليخرجه بهذا الشكل المنفر. لم يعجبه غرابة الهندام، فقرر أن يزيد أمر غرابته فأخرج القميص من البنطلون ليبدو هندامه أكثر لفتا للنظر، كما يظن هو، فبدا وكأن عمره قد ازداد ثلاث سنوات أخرى.

نظر إلى هيئته في المرآة، فسعد عندما رأي شخصا آخر قريبا إلى نفسه فابتسم وصاح في نشوة "ها هو الذي كنت أبحث عنه من سنوات". انتشى بحالة التمرد هذه على الواقع الذي لا يحبه رغم جماله، وعلى المشاعر التي يراها مزيفة رغم كل الكلمات المعسولة التي يسمعها ممن حوله.

آه لو رأته زوجته في هذا الزي والمظهر لأطلقت ضحكة كبرى بملء شفتيها واتهمته بالجنون، وأغلقت عليه الحجرة وقامت بتصويره من جميع الجهات قبل أن تحضر مقصا لتقطيع هذا الزي الذي يبدو فيه زوجها كمهرج

أو بهلوان. بالطبع ستجن وهي التي جعلته هو من هو، يتحاكى بشياكته وأناقته الصغير والكبير حتى صار مضرب الأمثال في أحدث موضة في الماركات العالمية، وتناسق الهندام وكأنه أحد نجوم السينما.

حمد الله على غياب زوجه المصون والتي تختار له كل قطعة من ملابسه بنفسها حتى ولو على غير رأيه. وشكر الله أن أولاده أيضا ليسوا هنا، أولاده الذين شربوا من زوجته كل صغيرة وكبيرة حتى جرت مياه سلوكها وعاداتها في عروقهم. هو يدرك أنه سلوك راقٍ ولكنه دائما ما يشعر بداخله أنه سلوك غير متوافق مع سلوكه الذي يخبئه داخله.

ظل وما زال يستمع إليها في كل صغيرة وكبيرة خاصة بالمظهر العام له ولأولاده، ولها نفسها دون أن يُظهر أي تزمت تجاه آرائها. بالعكس هو يحرص أن يسمعها باقتناع ويري أن آراءها صحيحة. أما من داخله فهو غير راضٍ أو بمعني أدق غير سعيد، فهو يشعر دائما من داخله أنه ليس هذا الشخص.

يشعر أنه أبسط من ذلك كثيرا حتى لو بدا في عيون الناس غير ذلك. يشعر دائما أن روحه في الشارع وسط الناس وعلى الأرصفة بين الباعة الجائلين. ولكنه بالطبع لا يستطيع أن يكون ذلك بسبب الحياة التي يعيش فيها بقلب وعقل آخر غير الذي يملكه بداخله.

تمني لو يُطَلق كل شيء في حياته من عمل وأصدقاء وزوجة ومنزل وشارع وهندام. تمني لو يتزوج أشياءً أخرى ووظيفة أخرى يحبها وتحبه.

تمني أن يلملم أشياءه ويرحل عن هذا المكان ويبحث عن مكان آخر يشعر فيه بنفسه، حتى لو كان أفقر رجل في العالم.

نظر إلى نفسه في المرآة وتعجب، فلم ير نفسه الحقيقية حتى في هندام التمرد هذا الذي يرتديه، والذي بذل جهدا نفسيا كبيرا في تنفيذه. تعجب أكثر من قدرته على تحمل الحياة إلى يعيشها بكل حذافيرها وباقتناع! وليس بحب أو سعادة أو حتى رضاء.

تعجب كيف للإنسان أن يعيش حياة غير حياته؟! وهندامًا غير هندامه؟ وأناسًا غير أناسه؟ هل هو اختبار من القدر أم هو نقمة من القضاء.

لم يستطع الإجابة على أي من هذه التساؤلات، فهي أكبر منه ومن مشاعره ومن واقعه. ابتسم لنفسه في ملابس التمرد هذه حتى ولو بدا فيها كالمهرج. ظل يتمشى ذهابا وإيابا في حجرته بين سريره والمرآة وهو مستمتع بهذه اللحظات الفريدة والسعيدة والتي كم يتمني أن يعيشها في الشارع بين الناس.

وقف فجأة أمام المرآة محدقًا في عينيه الضيقتين وقد تحولا إلى عيون صقر حادة، وحبات العرق تُندي جبينه وابتسامة تحدٍّ تغطي شفتيه. أخرج يديه من جيوبه وشد ظهره، وكأنه مقدم على قرار جريء يغير مصير حياته ولأول مرة في حياته بعد تخرجه وزواجه منذ ثلاثين عاما، كانت نتيجتها منزل وزوجة وأولاد ووظيفة يحسده عليها كل من يعرفه من الأهل والأصدقاء والأقارب وزملاء العمل، وحتى الباعة الذين يعرفونه.

رغم أن الكل يحسده ويغبطه على ما هو فيه، إلا أنه الوحيد الذي لا يشعر بأي سعادة على كل ما يحسدونه عليه. بل يشعر برغبة عارمة في التمرد على هذه الحياة. وتغييرها.

وكلما مر عام على هذه الحياة، وكلما ازداد الحسد ازدادت رغبته في تغيير هذه الحياة. ورغم أنه حاول بينه وبين نفسه كثيرا، إلا أنه كان يفشل كل مرة فشلا ذريعا فتسقط فكرة التغيير وتتهاوي بين أضلعه قبل أن يفكر فيها.

أما الآن فهو يشعر بقدرة وعزيمة وإرادة أكبر وأقوي على التغيير. فقد تعدي مرحلة التفكير وبدأ في تجربة فكرة التمرد على أرض الواقع وإن كان مازال في حيز حجرته بين المرآة وسريره.

الفرصة سانحة الآن فزوجته وأولاده بعيدون عنه في إجازة. نظر إلى نفسه في المرآة وإلى عينيه الحادتين والجادتين وتمتم في نفسه، وقرر أن ينفذ قرار تمرده التاريخي الآن مهما كانت العواقب عليه وعلى أسرته.

وجاءت اللحظة الفاصلة في حياته لينفذ القرار، ليأخذه قرار الرحيل إلى عالم آخر. ابتعد عن المرآة واتجه نحو الدولاب، وأخرج مقتنياته الشخصية من أيام الطفولة والصبا، غير عابئ بملابسه أو ساعاته أو اكسسواراته من الساعات والخواتم ونظارات الشمس ودبابيس رباطة العنق والقمصان. لملم فقط حاجياته البسيطة ولم يعبأ حتى بالنقود واكتفي بما في محفظته.

والفرحة تملأ عينيه وملامحه، وضع حاجياته في حقيبته الصغيرة وعلقها على كتفه ومعها قرار الرحيل. ترك حجرته مسرعا نحو باب (الفيلا) غير عابئ بكل ما وراءه من مقتنيات وديكورات منزله التي تخلب العيون. مشي بسرعة تجاه الباب وكأنه لا يري أي شيء حوله سوي الباب الذي يهرول تجاهه وكأنه الباب الذي يفصله عن حدود الحياة الجديدة.

هم بفتح الباب ليستنشق هواء الحرية ولذة تنفيذ القرار، لكنه فوجئ بزوجته وأولاده يفتحون الباب في نفس اللحظة. وما أن رأته زوجته بهذا الهندام الغريب حتى أطلقت ضحكتها وسألته "ما هذا الذي ترتديه يا زوجي العزيز؟ وما هذه الشنطة التي تحملها؟ وإلى أين أنت ذاهب الآن والساعة قد قاربت على منتصف الليل؟!".

لم يملك أمام ضحكتها إلا أن يبتسم في خجل ويخبرها بأنه أراد فقط أن يستقبلهم بمفاجأة غريبة تسعدهم، واحتفظ بسر قرار تمرده بداخله ولم يستطع أن يفصح عنه كالعادة. قبلته على وجنتيه وقبلها على جبينها. احتضنا الأولاد بينهما ودخلا الفيلا والسعادة تتناثر مع ضحكاتهم هنا وهناك لتعطر أثاث ومقتنيات المكان.

دخل الغرفة وراء زوجته وانتهز فرصة تغييرها ملابسها ووضع حاجياته بسرعة في أماكنها. عادت إليه ليسعدا بنومة هادئة. نظرت إليه: ماذا تفعل. أجاب بخجل مكتوم: أخلع عني هذه الملابس الغريبة التي أردت أن أفاجئكم بها كنوع من التسلية.

ضحكت وأخذت بيديه وضمته في حضنها: ولماذا هذا الخجل في عمق عينيك حبيبي؟ لا تخلع هذه الملابس الغريبة وتعال كما أنت بجواري فقد أعجبتني كثيرا ولكن بالطبع هنا فقط في حجرة النوم وليس أمام الأولاد.

شدته من يديه برغبة عارمة وهي تنظر إليه بعيونها ملتهمه كل جزء من هندامه البهلواني. قضي معها أجمل وألذ وأمتع ليلة زوجية في العمر، وكأنها ليلة من ليالي شهر العسل.

ومنذ هذه الليلة وزوجته تحضر له كل موديلات الملابس البهلوانية من وقت لآخر ليستمتعا بليالي الزوجية وسط ضحكات ولهو وسعادة لم يعشها من قبل في غرفة نومه بين السرير والمرآة، نفس المساحة التي أخذ فيها قرار التمرد.

وفي ليلة من الليالي الزوجية السعيدة، اتجه بهندامه البهلواني نحو المرآة، وزوجته وراءه هناك في هندامها البهلواني هي الأخرى. ظل ينظر إلى نفسه في المرآة مبتسما ومتعجبا كيف لقرار أراد أن ينفذه ليخرجه من هذا العالم الذي ملّه، يأخذه إلى نفس العالم، ولكن من باب آخر أجمل لم يكن يقصده ولا يعرفه.

ابتسم بعمق وعاد لزوجته ليرتمي في أحضانها كالطفل الذي يبحث عن مكان يشعر فيه بالأمان.

ضمته بقوة وحنان، واستسلما لنومة هادئة هو شهريار وهي شهرزاد.



رفاهية المشاعر

ظلت تروح وتجيء في غرفة نومها بين صورة الزفاف المعلقة على الجدار منذ ستة أشهر وبين قميصه المعلق على الشماعة والذي مازالت تشم منه رائحة عرقه الممزوج بعرقها منذ مساء الليلة الماضية. أصابها التفكير بتوتر وقلق سيطر على روحها، حتى جعل يديها تهتز وترتعش وكأنها ممسكة بسلك كهربائي مكشوف.

فبعد ستة أشهر من الزواج التقليدي لا زالت لا تعرف هل تحبه بقلبها؟ أم مجرد أنها تكره الانفصال عنه؟ هل تستمر معه رغم أنها غير متأكدة من حبها له؟ أم الأفضل أن تطلب الانفصال عنه؟ أو أن تأخذ هدنة حتى تتأكد من مشاعرها تجاهه؟ ظلت تروح وتجيء كالطفلة الخائفة من شيء تجهله. فكرة ترجح البقاء والتعامل مع الواقع لعل شيئا كبيرا يحدثه القدر، وفكرة ترجح ضرورة الانفصال وكفى.

بعد أن هدها ذهابها وإياباها كالبندول، توقفت في منتصف الغرفة لتنظر إلى ملامحها في المرآة، التي يحب كثيرا أن يأخذها بين أحضانه وينظر إلى المرآة وهو بهمس في أذنيها "انظري يا شذي إلى هذه الأميرة في المرآة، إنها حبيبتي، زينة قلبي التي أهداها لى القدر". ثم تتذكر وهي تنظر إلى عينيه في المرآة بلا شوق تاركة شفتيه تغوص في خديها وشفتيها باحثا عن حبه وعشقه.

وفي كل مرة يفعل ذلك، تترك له نفسها وتسلم له خديها وشفتيها يرتشف منهما ما يشاء. ولكنها لم تتذكر أن أعطته مرة قلبها، الذي مازال معلقا في صدرها ولا تعرف لمن تنبض دقاته.

وبالرغم من أنه يشعر كل مرة يغازل في شذى مشاعر الأنثى والحبيبة والعشيقة والزوجة أن بوصلة قلبها لا تميل إلى قلبه، إلا أن الأمل مازال يحدوه أن تحين اللحظة الحالمة يوما ما، طالما لا ترفضه، وطالما هو دائم المحاولة في التعبير عن حبه، ودائم المحاولة في إخفاء ما يشعر به من جفاء يختبئ في أعماق قلبها ولا تعلن عنه.

أحمد شاب وسيم، طيب القلب، وبصحة طيبة، ويتمتع بسمعة طيبة يرتاح لها ويصدقها كل من يتعامل معه عن قرب أو بعد. كل شيء فيه طيب، هندامه ولسانه وسلوكه.

هو وحيد والديه، وبار بوالديه. لم يكن لديه أي علاقات عاطفية قبل أن يخطب شذى، رغم عمره الذي تخطي الثلاثين.

هو لا يعرف كيف يغازل، ولا كيف يجذب الجنس الآخر رغم كل الإمكانات المادية والذكورية لديه، ورغم جمال مظهره وهندامه، ورغم فحولته ورجولته.

لا يعرف كيف يتعامل مع الأنثى كحبيب وعشيق رغم فورة الرومانسية التي يخفق بها قلبه الطيب. كم نصحه أصدقاؤه أن يقرأ عن كيفية التعامل مع الأنثى وكيف يًعبر عن حبه وعواطفه الجياشة، ولكنه أبدا لم يستمع لأنه يؤمن بأن من يرتبط بها قلبه عن رغبة مشاعر، سوف تكون له درسه الخصوصي في الرومانسية، بل ستفجر فيه آبار الرومانسية.

شذي أنثي في المظهر والمخبر والحديث. تربت منذ طفولتها على أنها الأنثى الأولي. نمت فيها الأنوثة حتى تفجرت في المرحلة الجامعية، ورغم كثرة الخطاب، إلا أنها كانت تنتظر هذا الحب الكبير، الذي يملؤها كلها فتغوص فيه حتى أذنيها، وتشربه حتى تسكر بهذا الحب، وتنام وتصحو عليه.

أنثي كل خلية فيها تفوح منها الرومانسية. تمنت أسرتها أن توافق على أحد الخُطاب الذين تقدموا لها، وكلهم امتيازات مادية واجتماعية ووظيفية. إلا أنها ظلت ترفض على أمل أن يهبط لها من السماء هذا الرجل الذي يغمرها برومانسيته ورجولته وشبابه وحديثه المعسول والممزوج بنظرات عينيه الحانية.

ويشاء القدر أن يجتمع الجميع على هذا الشاب المعروف بخلقه ووسامته وسلوكه وحلاوة حديثه. جلست معه مرة شعرت فيها بطيبته ولكنها لم تشعر أبدا بلهفتها إليه. ظل جميع أفراد الأسرة وكذلك أصدقاؤها يضغطون عليها بالإقناع وهي ترفض.

وبعد تفكير ومناقشات، وإصرار منه، وصبر على الارتباط بها، لان عقلها ووافقت على الخطوبة على أن يكون قرار الزواج حسب ما تقرره مشاعرها هي. تنفست الأسرة والأصدقاء الصعداء، ووافقوا على شرطها على أمل أن تشعر بحبه وتدرك قيمة طيبته مع الأيام.

مر وقت الخطوبة سريعا ولكن لم تشعر شذي بتلك الرجفة التي تهز مشاعرها، ولا بذلك الانجذاب الذي يأخذها كلها في أحضانه وكأنها غائبة عن وعيها. لم تشعر بنظرات عينيه الحانية وهي تخترق كل خليه في جسدها فتجعلها قطعة شوكولاتة يلتهمها كما يشاء.

مازال في خيالها ذلك الشاب ذا العيون العميقة الساحرة القادرة على غزو قلبها واحتلال طبول دقاته بالنظرات والكلمات واللمسات والهمهمات. ولكنها لم تشعر بأي من هذه الخيالات، رغم كل الطيبة والحنان والاهتمام الذي كان يصبه أحمد بين يديها وفي أذنيها وعينيها في كل مرة يتقابلان فيها. وكان قرارها إنهاء الخطوبة ورفض الزواج على أمل تلتقي بحبيب الخيال.

جن جنون أسرتها بسبب قرارها بعد مرور عاما كاملا من الخطوبة، والتي لم يعكر صفوها سوي شكواها غير المبررة رغم كل الطيبة والرجولة والعذوبة والاهتمام منه، ورغم تحمله مضايقاتها وعنادها ودلعها وسقطاتها. شعر والدها بغصة شديدة في القلب، فهو شاب لا يُعوض وهي فتاة تفكر برغبة الأنثى وليس بعقلها ولا حتى بقلبها.

أُصيب والدها بوعكة صحية شديدة أرجعها الجميع لموقفها. وكانت هذه الوعكة هي السبب الوحيد الذي جعلها توافق على الزواج من أحمد رغم أنها غير متأكدة من مشاعر قلبها. وتم الزواج وفي قلبها غصة لتنازلها عن حبها الحالم. شعر أحمد بأن الله منحه نجمة من السماء لا بد أن يحافظ عليها لتظل دائما مضيئة ومشعة ولو كلفه ذلك حياته.

توقفت أمام المرآة تحملق في ملامحها المتوترة، محاولة أن تصل إلى قرار لعلاقتها معه.

هو زوج مثالي ويحبها وبدأ يتعلم كيف يحبها، وكيف يعبر عن مشاعره ببعض الرومانسية. وهي بالفعل تقدره كزوج، ولكن مازالت معاني الحب العميق وعشقها الدفين بعيدا جدا هناك في قلبها لا يتحرك.

وقفت أمام المرآة متعجبة كيف تراه بجوارها بملامحه الطيبة وذراعاه يلتحفان خصرها وهو يحتضنها بحنان بالغ. كيف تراه بجوارها هكذا في المرآة رغم أنه غير موجود معها، ورغم تفكيرها في الانفصال عنها.

تعجبت كيف أن قلبها يطلب الانفصال وعقلها يريد الاستمرار. شعرت بأنها انشقت إلى نصفين، قلبها نصفين وعقلها نصفين، ومشاعرها نصفين. شعرت حتى أن اسمها وعمرها انشق كل منهما إلى نصفين، ولا تدري ما إذا كانت هي السبب أم هو القدر. ولذلك لا بد لها أن تأخذ قرارا يريح أحد النصفين وإن تجمد النصف الآخر.

وبعد لحظات غاصت فيها في أفكارها، سمعت جرس الباب لا ينقطع ويد تدق على الباب ولا تتوقف. شعرت برعب اختلط بالقلق الذي تشعر به حتى أصبح قلبها كالخرقة البالية.

جرت نحو الباب بسرعة وقلبها يرتجف من الخوف من سماع خبر عن والدها لأنه مازال يعاني من الأزمة الصحية التي ألمت به وكانت هي السبب الرئيسي في زواجها. جرت مهرولة نحو الباب متمنية أن يكون والدها بخير.

نسيت أفكارها وقلقها من قرار الاستمرار مع زوجها أو الانفصال عنه بلطف. وملامحها تغوص في وجهها من الخوف والقلق، فتحت الباب بلهفة لتري ما الخبر. فوجئت بوالدها أمامها وهو بكامل عافيته ولكن وجهه متجهم وحزين وقد امتلأ وجهه بخطوط الطول والعرض كلها قلق.

صرخت في وجهه، ماما بخير يا بابا.

رد بهدوء ومازال الحزن العميق في عينيه، نعم يا شذي، ماما بخير وإخوتك بخير.

كل الأسرة عندنا بخير.

إذا ماذا هناك وراء هذا الهلع على الباب وهذا الحزن العميق في عينيك.

وضع راحتيه على كتفيها، ونظر في عينيها برفق ليهمس في حزن، شذي أحمد في المستشفى بسبب حادثة سيارة.

وما إن سمعت شذي تلك الكلمات حتى شعرت بخواء يغمرها، وبتيار من الرجفة يهزها بعنف. شعرت أنها تريد أن تري أحمد الآن وتحتضنه بقوة وتضع قلبه في قلبها وتقفل عليه. شعرت بأن نصفيها التأما وأن عقلها تصالح مع قلبها.

أصبحت لا تري الآن سوي صورته وهو بجانبها في المرآة، يلف خصرها بذراعيه ويقبلها من خديها برفق وحنان، وعينيه عليها في المرآة. تمنت لو يكونان سويا الآن في غرفة النوم أمام المرآة وتعكس هي الصورة، تحتضنه وتحيط خصره بذراعيها وهي تقبله على جبينه ورأسه وخديه وشفتيه، قبلات يسمعها قلبه فيهدأ ويرتاح ويسعد بها زوجة وحبيبة.

شعر والدها بقلق عليها لأنها لم ترد عليه، ولم تُظهر أي رد فعل على الخبر الذي لابد وأنه قد هزها بعمق. نادي عليها، أين أنت يا سارة، هل سمعتِ ما قلته عن أحمد؟

أفاقت شذي من اللحظة التي أخذتها بعيدا. ردت بصوت مملوء بنغمة جديدة على والدها، نعم يا بابا سمعتك، كيف حدث ذلك؟ وهو لم يتصل بي طوال اليوم، وكيف عرفت أنت بالحادثة؟ ومن اتصل بك؟ وماذا قالوا لك عن حالته؟ أرجوك دعنا نذهب الآن وفورا لنطمئن على أحمد.

اندهش والدها من سيل الأسئلة ومن اهتمامها البالغ بأحمد لأنه يشعر من فترة أن قلبها ليس كله مع زوجها. ورغم اندهاشه ورغم قلقه على أحمد، إلا أنه سعد كثيرا بهذا القلق البادي في أسئلتها وفي ملامحها وفي عينيها.

تسلل إليها شعور جديد وغريب لم تتوقعه أبدا. شعرت وكأن أحمد هو هذا الرجل الذي ليس مثله رجل، رجل يحمل في قلبه قلوب كل الرجال. كيف تسلل إلى قلبها هذا الشعور؟ لا تعرف!

تعجبت وهي تجري مهرولة من الخوف من فقدان أحمد ووالدها يحاول اللحاق بها! تعجبت كيف للقلب أن يتحول فجأة؟!

كيف للمشاعر أن تفور فجأة هكذا؟ كيف للخيال الجميل أن يتجسد في الواقع الذي كنا نزهده؟

كيف لي أن أصبح متيمة به في غمضة عين؟ في لحظة فاصلة؟ وأنا الذي كنت أفاوض نفسي في حياتي معه منذ دقائق. كيف حدث هذا الزلزال والبركان الذي هز مشاعري وفجرها هكذا فجأة وبدون سابق إنذار؟!

هل هي رفاهية المشاعر والحب الذي يجعلنا لا نشعر بحقيقة الحب والمشاعر الحقيقية؟ أم أن الحب الحقيقي يحتاج لاختبار من النوع الثقيل؟

أفاقت شذي من خواطرها وطلبت أحمد والذي لم يرد عليه فجن جنونها. تحولت إلى قطة تقفز بخطوات سريعة ووالدها يهرول وراءها. وبعد أكثر من نصف ساعة في القفز بين السيارات في الشوارع، وصلت إلى المستشفى.

هرولت إلى الغرفة المخصصة له بعد أن سألت في الاستقبال. وجدته مستلقيًا على السرير ووجهه وبعض أجزاء جسده مغطاة بالضمادات.

رغم الآلام المبرحة التي يشعر بها في جسده، إلا أن روحه شفيت من كل ألم عندما رأي شذي تدخل الغرفة عليه بقلق.

جرت نحوه كالطفلة، أنت بخير يا أحمد؟ أنت سليم؟ وجرت عليه تتحسس جسده لتتأكد أنه بخير؟

ملأت السعادة وجه أحمد وكأنه ولد من جديد في هذه اللحظة التي هي الأولي منذ زواجهما التي يشعر فيها بحب شذي الحقيقي ولهفتها عليه وتمسحها فيه كالقطة المحبة لقطها والراغبة فيه.

- شذي، لا تقلقي على فأنا بخير والحمد لله، فقط جروح سطحية وإن شاء الله أتعافى منها سريعا. ولكن لو أعلم أن حادثة واحدة تجعلك تهتمين بي وتقلقين على هكذا لكنت مت كل يوم ألف ميتة لأشعر بهذا الاهتمام وهذا الحب.

وقف الوالد ينظر إلى ابنته شذي غير مصدق لكلماتها ونظراتها ومشاعرها التي تسيل من عيونها وملامحها. تعجب أين كان كل هذا الحب وكل تلك المشاعر وكل هذه النظرات؟ وتلك اللهفة. إنه القدر الذي يرتب الأحداث ويقلب المشاعر. ظل واقفا منبهرا باللحظة وسعيدا بها ومتمنيا أن تدوم إلى الأبد.

احتوت سارة رأس أحمد براحتيها الرقيقتين وعيناها تتطلع إلى عينيه اللامعتين بالحب والشوق: أحمد لا تتعجب، لكل لحظة ميلاد ولكل مشاعر زمان ومكان، والمشاعر الحقيقية هي التي تولد وتنضج وتتفجر

دون سابق إنذار. أنت إنسان جميل، كنت أشعر تجاهك بحب الزوجة، أما الآن فأنت زوجي وحبيبي وعشيقي، والرجل الذي كنت أحلم به.

نظر إليها أحمد نظرة حملت معها كل الحنان الذي يموج في قلبه، وكل الحنين الذي يملؤه، وكل الطيبة التي تذوب في خلاياه، وأخرج من جيبه هدية عيد ميلادها ليضعها على عنقها ليتدلى على صدرها سلسلة بنهايتها قلب ماسة محفور عليها "أحبك للأبد ولو كان حبك لي مُحال".

قرأت سارة الكلمات المحفورة على الماسة فدمعت عيناها، وهمست في عينيه بقبلة كادت تمزق الشوق في أضلعه "وأنا أحبك للأبد وإلى أقصي مدى فحبك لي الزاد والمال". ولكن كيف اشتريت هذه الهدية وأنت في حالتك هذه؟

ابتسم لها بقلب ضاحك، اشتريتها قبل الحادثة بدقائق. هل نسيتِ أن عيد ميلادك غدا.

لمعت عيناها بدمعات حبستها، فقد كان حرصه على هديتها هو السبب في هذه الحادثة.

قبلته على شفته قبلة أراحت كل آلامه.

ذابا في بعضهما، هو يحتضن خصرها بذراعيه، وهي تحتضن قلبه براحتيها، ووالد سارة يزفهما على دقات قلبه الذي ولد هو الآخر من جديد.



خوف مع سبق الإصرار والترصد

أشعر بإرهاق جسدي شديد من كثرة العمل وبإجهاد ذهني مزمن من تعدد وتشابك الأعباء. استمع لنصيحة صديقي بأن ارتاح من العمل ويقترح على مكان ما في مدينة ما لا أعرفها. أعمل بنصيحة صديقي ونفذها. أحجز تذاكر طيران عودة، أصل إلى المدينة متمنيا الهدوء الذهني. استأجر سيارة، أذهب إلى الفندق، أحجز أربعة ليال وأنام ليلتي وأنا أحلم بقضاء ساعات سكينة وهدوء وراحة بال لجسدي وذهني بين الطبيعة بعيدا عن ضوضاء القلوب قبل العقول.

استيقظت مبكرا وكلي طاقة وتشوق وإثارة لعالم جديد. أقود السيارة قاصدا المكان الذي نصحني به صديقي. اذهب وكلي شغف للاسترخاء والتمتع بالطبيعة الخلابة كما أتوقع. أفاجأ بأنني في مكان

قفر، بعيد، وموحش خالي من الناس ومن أي جمال. أقرر العودة إلى الفندق. أقود السيارة، وفي وسط الطريق تتعطل السيارة، ولا أعرف أين أنا.

أبحث عن تليفوني فلا أجده، أبحث عن كارت الفندق فلا أجده. أحاول أن أتذكر اسم الفندق فلا أستطيع. أحاول العودة باستخدام خاصية "الجي بي إس" ولكن السيارة معطلة، اترك السيارة وأقف على جانب الطريق انتظر تاكسي. انتظر طويلا ولا يظهر أي تاكسي في الأفق. طال الانتظار ساعة كاملة مرت على كالدهر كله، أشعر بالتوتر. أخيرا أري تاكسي قادما ببطيء وسط الظلام الدامس بأنوار خافتة، ويقف التاكسي.

الرجل يتحدث لغة لا أعرفها ولا أفهمها، يدرك أني غريب، أفهم من لغة جسده أنه يريد أن يساعدني ولكنه لا يعرف كيف، أشعر بالقلق ويزداد التوتر. رسمت له طيارة على ورقة لعله يفهم أني مسافر غريب، يهز الرجل رأسه ويقلني إلى المطار، أوافق على هذه رأسه رغم أني لا أدري ما يدور فيها. اترك السيارة المؤجرة في الشارع واذهب بالتاكسي إلى المطار.

أبحث عن تذاكر الطيران فلا أجدها، أشعر بالتوتر ومزيد من القلق. كرهت السفر وكرهت اللحظة وكرهت هذه الرحلة، وفقدت الأمل في العودة إلى الديار. أجري نحو مكتب شركة الطيران في المطار وورائي الرجل سائق التاكسي يريد حسابه. أسألهم أن يجدوا اسمي وميعاد

طائرتي، أتلقى نظرات مملوءة بالبرود، ولا أحد يهتم. ألح في السؤال، وبعد عناء يجدوا اسمي ولكن يخبروني أن الطائرة قد أقلعت منذ ساعة. أتعجب واعترض فما زلت في إجازتي وأريد فقط أن أتعجل العودة. بتثاقل، يسألونني عن جواز السفر، أبحث عنه فلا أجده.

ابحث عن حقيبتي وبها كل متعلقاتي، فاكتشف أني نسيتها في الفندق الذي نسيت اسمه وعنوانه فيزداد توتري وقلقي ويصل إلى أقصى مداه. أطلب المدير لأقص له حكايتي لعله يساعدني. يأتي الرجل وعلى شفتيه ابتسامة صفراء اعرفها جيدا، دقات قلبي تكاد تهتك ضلوع صدري من التوتر والقلق. يتلعثم الرجل بلغة إنجليزية ركيكة ويقول بنبرة هادئة مملة وكأنه يتعمد أن يزيد غيظي، لا نستطيع مساعدتك سيدي ونحتاج جواز سفرك لنحجز لك إذا وحدته، وأول طائرة بعد أسبوعين، اعتني بنفسك سيدي.

تركني الرجل ورحل. وتركتني موظفة الاستقبال ورحلت، وتركني سائق التاكسي ورحل بعد أن تحدث مع الرجل ونظر إلى بغيظ وشفقة. شعرت بمزيد من القلق والتوتر والوحدة والغربة وقلة الحيلة. انتفض قلبي في صدري ووقفت وحدي حائرا في المطار أدعوا الله أن يبعث لي حلًا يخرجني من هذا المأزق الذي تحول إلى كابوس.

انظر حولي فلا أجد أحد هناك يفهمني أو يصدقني فيزداد ألمي وهمي ويزداد دعائي. أحاول أن أتماسك وأن أُمسك دمعاتي أن

تتساقط. يزداد دعائي وتوسلي بأن يُخرجني الله من هذا الكابوس، ولكني ما زلت وحدي.

وقبل أن أبكي همي، أفقت على رنين جرس الباب المتكرر لبائعة اللبن التي تأتي مرة كل أسبوع، أدركت أني كنت في حلم من أحلام السبكي. استيقظت من هذا الكابوس، نهضت من السرير وانا أحمد الله في كل خطوة على أني لست في المطار، وأني لم ابرح مكاني.

افتح الباب بنشوة وفرحة وطمأنينة. ادفع لبائعة اللبن حسابها أضعاف. تتعجب السيدة "ليه كل هذه الزيادة يا أستاذ". أرد بابتسامة ودعاية "ده حساب التاكسي". ترد "تاكسي إيه"، أقول "التاكسي اللي ها تركبيه وانتي مروحة". تتعجب السيدة وتدعو لي بشدة.

لم تدري السيدة بأن كان جزء منها أجرة التاكسي الذي أقلني إلى المطار في الحلم، والجزء الآخر أنها أيقظتني دون أن تقصد من هذا الكابوس فيكفي أنها أخرجتني من المطار مجانا وبدون طائرة.



أحلام الغربة

لم يعد قادرا على تجنب أذى هؤلاء الناس، فكل من حوله لا يريد إلا رأسه. تأكد له أنه مقتول بهوس الغيرة والحقد الأعمى.

لم يكن يتوقع أن يصل الكره للقتل فلم يكن له ذنب في جمال هيئته ولا الابتسامة التي رسمها الله على شفتيه، ولا بسمو أخلاقه، ولا بإخلاصه وحبه وتفوقه في عمله.

ولم تشفع له إنجازاته لدي من حوله، ولم يشفع له هدوؤه وتجنبه لكل من فوقه لعلهم يكفون عنه الأذى.

لم يكن يلقي بالا لمشاعر الحقد والكره ونيران الكلمات الموقدة التي تأكل عرضه وماضيه وحاضره. لم يكن يأبه بالابتسامات الصفراء

طالما أنها مجرد ابتسامات. تحمل كل شيء إلا أن يُقتل بنيران الخيانة آلاف المرات.

لم ينم ليلته من الخوف والقلق من انتظار زيارة مفاجئة ليجتمعوا عليه ليلا وهو وحيد بين إنجازاته.

فقد تأكد له أن منهم من يريد قتله ضربا على رأسه حتى الموت، الرأس التي أتعبتهم بلا سبب فقرروا أن يطفئوا نورها وتموت معها إنجازاته. وتأكد له أيضا أن منهم من هو عازم على قتله حرقا، بعد قيده بحبال لعناتهم وحقدهم وكرههم ثم بحرق كل إنجازاته أمام عينيه حتى تتحول إلى رماد ثم خلط رماد إنجازاته هذا في سيل دموعه التي سوف يسكبها ولو غصبا بفعل مثيرات الدموع المسمومة بأنفاسهم ولعناتهم، ثم حقنها في دمه؛ حتى تخرج روحه من رأسه وتخر أمامهم كخرقة بالية.

عندما تأكد له أنه مقتول إما حرقا بنيران الخيانة أو حقنا بمحلول إنجازاته، قرر أن يخطط لقتلهم قبل أن يقتلوه وهو الذي لم يفكر قبل اليوم في قتل بعوضة تتلذذ على مص دمائه، ولكن بعوض البشر لا يمكن تحمله. لم ينم ليلته وظل ساهرا يفكر ويفكر لعله يهتدي لوسيلة قتل بلا دماء وبلا صوت الرصاصات.

وأخيرا وبعد أن أعياه التفكير، توصل إلى وسيلة فعالة في القتل المفاجئ، فقد توصل إلى فكرة تفخيخ حروف الكلمات. وبالفعل لم ينم

حتى كتب سبعة نسخ من خطابات الاعتذار التي لم تزد عن بضعة سطور. اعتذار للسبعة الذين يتوقع مجيئهم الليلة لقتله في وحدته.

اعتذار عن إنجازاته، وعن طيبته، وعن إخلاصه وعن كل شيء جميل ظن أنه مفيدا، اعتذار عن الحياة وأخيرا اعتذار عما خط في هذه الخطابات من اعتذارات.

فخخ كل الحروف في الخطاب والنقاط والهمزات والوصلات وحتى المسافات بخليط من أقوي أنواع المفرقعات من بارود وديناميت الانتقام.

جعل كل ذرة من حروف كل كلمة قنبلة ذرية، جعل من السطور بين الكلمات حقل لألغام فكرية، برمج حروفه وكلماته بتليفونه الخلوي، بحيث ينفجر الخطاب في وجه وعقل صاحبه عندما يدرك في عقله آخر سطر في الاعتذار عن الحياة وفي قلبه عندما يشعر بالفخر والنشوة بانكسار صاحب الاعتذار.

قرر أن يعطيهم خطابات الاعتذار كطلب أخير قبل قتله، وتخيل مدي شعور النشوة والشماتة عندما يقرءون اعترافه بالفشل واستسلامه جسديا وفكريا قبل قتله. وبعد أن انهي تفخيخ الخطابات السبعة، بدأ يشعر ببعض الأمان والهدوء وقرر أن ينام بعض الوقت قبل أن يشاهد ملحمة القتل بالسكتة الدماغية والقلبية لأعدائه.

استسلم لنومه الذي لم يذقه منذ شهور ممسكا الخطابات بإحدى يديه والتليفون الخلوي بيده الأخرى. غط في نومه وتوارد إلى عقله كل

أنواع الأحلام التي كانت مختبئة ومحبوسة هناك طيلة الأشهر الماضية بسبب قلة النوم حتى هاجت الأحلام وتحول الكثير منها إلى أحلام يقظة.

فجأ بزغ من ضمن الأحلام بأحداثها العشوائية حُلم أحداثه مرتبة ولقطاته واضحة كأنه في واقع الحياة. فأحيانا تصبح الأحلام كتابا مفتوحا ينتقم فيه الماضي من الحاضر.

ظهرت له آلاف الكلمات من مفردات الحب والكره والنميمة والغيبة والبهتان تتداخل وتعلو وتهبط وتطير هنا وهناك في سماء غرفته الوحيدة والمظلمة وصوت زناتها يكاد يصم أذنيه.

وفجأة رأي الكلمات تتشكل على هيئة حبل طويل، حبل سميك كحبل الإعدام.

فجأة تحول الحبل عند نهايته إلى حلقة على قدر العنق ولكنها على شكل قلب. تعجب من أين أتت كل هذه الكلمات وكيف تحولت إلى حبل الإعدام هذا، ولماذا تشكلت حلقته على هيئة قلب. شعر بخوف شديد من هذا الحبل وخوف أشد من وحدته وظلمته وسط هذا الجو العشماوي.

وهو مغموم وسط هذه الأحاسيس المخيفة، فوجئ بالحبل يتجه إليه رويدا رويدا ليلتف حول عنقه. وكلما حاول الابتعاد عنه أو تجنبه ضحك الحبل بصوت الرعد حتى أطبقت على عنقه وبشدة الحلقة التي على هيئة قلب.

بدأ يصرخ ويصرخ والحلقة تعصر عنقه تارة ثم ترتخي تارة ثم تعصره تارة وأنفاسه تغيب عنه رويدا رويدا حتى تدلت يداه بجانبه بلا حراك.

وفجأة استيقظ على صوت قطته وهي تتمسح بوجهه قلقا وخوفا عليه جراء صراخه. لم يُصدق أنه كان في حلم، فحمد الله أنه بعيد عن كابوس الإعدام، واحتضن قطته وقام ليتوضأ ويصلي ركعتين شكرا لله.

وبعد الصلاة قرر أن يلغي تفخيخ الخطابات ويمزقها إربا. قرر أن يكتب خطابات اعتذار أخرى عن مشاعر الانتقام، ومع الاعتذار طلب قبول الصداقة مع أعداء الحياة. قرر أن يفخخ حروف كلماته بمشاعر الحب والود والصداقة والنقاء بدلا من البارود والديناميت.

وضع الخطابات في المظاريف وأغلقها وكتب على كل ظرف "اعتراف إلى صديق جديد" وركن إلى المقعد المفضل لديه منتظرا الزيارة التي قرر أن تكون زيارة صداقة ولو من طرف واحد بدلا من زيارة انتقام وقتل من الطرفين.

وفجأة، سمع صوت طرق شديد على باب غرفته يصحبه رنين جرس الباب بلا توقف وصوتًا عاليًا يهز كيانه وصوت أيادٍ تكاد تحطم باب غرفته. نهض بسرعة من سريره ليفتح الباب فقد كان صوت صديق العمر الوحيد وراء الباب وقد تأخر ساعة عن ميعاد العمل. وهنا تأكد أنه كان في ذاك الحلم الذي ينتابه وتكرر منذ شهور، منذ عودته غصبا من بلاد الغربة يفتش عن صداقات جديدة في حياة جديدة ولكنه لم يجدها بعد.



حب لا يعرف الخوف

هي جاءتها مكالمة تليفونه كشربة ماء في يوم حار، وكنسمة عبير تلطف صهد أوجاع يوم طويل مملوء بمنغصات الحياة. امتلأت جوانح نفسها فرحة بكل حرف بالمكالمة. جرفتها مشاغل اليوم وطلبات الناس في العمل وخارج نطاق العمل كما تعودوا دائمًا منها، أخت قريبة وأم حنون. وهي في طريقها إلى البيت، شعرت بحاجة ملحة لراحة الجسد المنهك والعقل الثائر متمنية أن ترى سريرها الآن لتلقي جسدها عليه وترتاح من تعب وهموم اليوم. ولكنها نست أو تناست كل أنواع التعب وانطلقت بداخلها طاقة الفرحة الكامنة والسعادة النائمة عندما سمعت صوته وعندما طلب لقائها اليوم وبعد قليل.

هو لم يصدق نفسه عندما وافقت أن تقابله اليوم والأنن وليس الغد كما كان متوقعا واتفقا عليه مسبقا. وافقت على الفور دون أن يُلح عليها علامة على حبها الصادق. جري نحو المِرآة ليري ضحكات عينيه التي كانت تشاهد وحدته منذ قليل. انتهت المكالمة بينهما لتبدأ رحلة لقاء اليوم التي جاءت له هدية ممن يعشق أن يراها وهي تبتسم، وهي تدمع، وهي تقف، وهي تمشي، وحتى وهي غائبة عن عينيه.

هي ابتسمت وضحكت بلا سبب ولكنها مؤكد منتشيه بهذا اللقاء، فكم تحتاج أن تتحدث إليه وهو يستمع لها حتى تنتهي من كل خواطرها، فكم تعشق إنصاته لها وابتساماته عندما يداعب الكلام شفتيها. وما أن وصلت البيت حتى جرت كالطفلة تُغَير من ملابسها لترتدي زي كاجوال فهكذا قررت وهي تبتسم لتفاجأه فهي تعلم جيدا كم يحب المفاجآت وكم يعشق أن يراها وهي على طبيعتها بدون ماكياج أو رسميات حين تبدو طفلة وهو صبيها المتيم.

كالطفلة، ارتدت نفس الطقم التي قابلته به أول مرة، المرة التي تحدثت عينيه فيها بدلا من شفتيه ليعترف لها بحبه دون أن ينطق بكلمة واحدة سوي "إزيك". جرت مهرولة ومفاتيح السيارة في إحدى يديها وشنطة اليد الصغيرة في يدها الأخرى وطارت بالأسانسير إلى الجراج ومنه إلى سيارتها وأمام عينيها حبيبها الذي تراه يجري الآن مهرولا إلى مكان اللقاء. ركبت السيارة وتحسست الكرسي الفارغ بجوارها وتمنت أن يسعفها الوقت أن يجلس بجوارها ويصاحبها في جولة بعد اللقاء.

طافت بالسيارة في شوارع المدينة والسعادة تغمرها كلما رأت مكانا وقفا أمامه مرة، أو ابتاعا منه شيئا، أو مرت السيارة أمامه وهما سويا. أرادت أن تُشهد كل الأماكن التي جمعتهما في هذه المدينة الصغيرة بأنها تحبه وبأنها على موعد معه الآن، فلتستعد كل الأماكن لاحتمالية زيارة هو وهي. وبعد أن طافت بالسيارة حول كل الأماكن، توجهت لمكان اللقاء وقلبها يرتجف من الفرحة.

أوقفت السيارة في البارك المجاور للكافيه التي تعودا على اللقاء فيه. طلت من شباك السيارة كالعادة فوجدته هناك ينتظر كالطفل الهائم بلا دليل، طفل يحيا بقلب من حرير. فتحت شنطة يدها لتري عيناها في المرآه كما تعودت قبل كل لقاء، فتذكرت الخطاب الذي جاءها أمس من مجهول مع البواب. تعجبت من الخطاب. من هذا الذي يرسل خطابا هذه الأيام في زمن الفيسبوك والإيميل. لم تشأ أن تفتحه حتى لا تفسد اللحظة ولهفة اللقاء وطقوسه ولكنها فوجئت بأن المظروف ممهور بكلمة "سري للغاية".

تعجبت يا تري من أرسله ولماذا وما هذه الغاية التي وراءها السر الذي يكمن بهذا الخطاب. ترددت أن تفتحه ولكنها قررت أخيرا أن تقرأه لعلها تشارك حبيبها فيه عند اللقاء. قرأت الخطاب ولم تصدق كل كلمة فيه حتى وصلت لنهايته لتجد اسم غريمها الأول في نهاية الخطاب يحذرها بل يهددها من لقاء الحبيب الذي قد يكون آخر لقاء في الحياة بينهما إن تلاقيا.

نظرت حواليها خائفة ومرتبكة وحائرة فوجدت وراءها شخصا ما في سيارة أخرى يبتسم ويتلصص وينتظر. نظرت هناك على الكافيه فوجدته هناك ينظر في ساعته ويعدل من هندامه ممسكا بوردة حمراء وحولها ورود بيضاء يستعد لإهدائها عند طلتها بمدخل الكافية. ولما رأته على هذا الحال دمعت عيناها وخافت عليه من هذا اللقاء، ونظرت خلفها فتجمدت الدمعات في مقلتيها خوفا من نظرات هذه العيون الجامدة المتلصصة ورائها.

احتارت بين الإثنين، ماذا تفعل بين عيون حانية وعيون قاسية. وبعد لحظات قررت أن ترحل وتترك كل على حاله.

رجعت لسياراتها ومشت تطوف شوارع المدينة على نفس الأماكن لتشهدها على عناد الزمن. دمعت عيناها مرات ومرات، ولم تدري بنفسها إلا والسيارة تقف دون وعي أمام الكافيه مرة أخرى لتجده مازال هناك منتظرا.

تعجبت كيف توقفت السيارة وقرأت مشاعر قلبها الباكي، ولم تمر لحظات حتى قررت بعفوية أن تنزل وتقابله حتى ولو كان آخر لقاء.

ولكنه كان أول لقاء لرحلة لم تنتهي حتى الآن فقد كان الحب أقوي من كل التهديدات والمعلومات الزائفة في خطاب من مجهول.



الخوف بلا رصيد

ازدادت سرعة دقات قلبه وكادت أن تهتك أسوار ضلوعه إربًا من شدة الهلع الذي أصابه فجأة. فعلي حين غِرة وجد نفسه ملقي كالضفدع المشلول وسط بركة من الماء والدماء، لا يعرف من أين أتي الماء أو من أين سالت الدماء.

كل ما يتذكره أنه كان مستمتعًا بقيادة سيارته السوداء الفارهة، والموسيقي الهادئة، وهو على الطريق الدائري حول مدينته محاولا إيجاد حل لأحد المشكلات التي تواجهه في مصنع السماد الذي يملكه.

نظر حوله فلم ير ولو شبحًا لإنسان أو حيوان. لم يسمع إلا صوت حفيف أوراق نحيلة لنباتات هشة على حافة هذا المصرف الكبير

والعميق والكريه، الذي وجد نفسه مُلقي فيه وحيدا والمياه العفنة تحيط به من كل جانب.

لم يفكر في السيارة، ولا الموسيقي، ولا بذلته الأنيقة التي أصبحت بلون مياه الصرف الكريهة. الشيء الوحيد الذي تعلق به هو ضوء القمر الذي بدد عنه ظلمة الليل الصامت وهو عالق وسط مياه المصرف التي تهاجمه حتى كادت أن تصل إلى عنقه وتكتم أنفاسه.

شعر بوحدة شديدة وضياع وهوان لم يشعر بهما من قبل، وهو الذي كان يظن أنه ضد الهوان وضد الضياع، فهو دائما الأقوى بلا منازع وبلا نزاع. ودون أن يقصد، تحسس مقدمة سيارته الغارقة بقدميه، فحمد الله واستجمع قواه محاولا نزع قدميه من لجة الطين العفن الذي ابتلعه كالأسمنت.

وبعد دقائق مرت عليه كسنوات عمره الخمسين، استطاع أن يصعد على جانب السيارة وهو يتمتم بألف ثرثرة في الثانية متمنيا أن ينقذه الله من وسط هذه المحنة الكبيرة وألا تنتهي حياته بهذه الطريقة المزرية.

ظل يحاول استجماع وجدانه وأفكاره المبعثرة هنا وهناك في عقله وقلبه محاولا أن يتذكر ولو دعاء واحد من الدعوات التي كان يسمعها من والده وقت الأزمات، ولكنه اكتشف أنه لا يحفظ منها ولو دعوة واحدة.

ورغم جفاف مخزون الدعوات، فوجئ بأن لسانه ينطق، ودون أن يدري كيف؟! بدعوات تلقائية لنجاته، ظل يدعو بها وهو وسط هذه البحيرة العائمة من العفن في مياه الصرف التي تغمره من كل جانب.

ظل يدعو ويتمني أن يستجيب الله لدعواته وأن تهب رياح ولو بسيطة أو نسمات ولو هادئة لتحرك أغصان تلك الشجرة الوحيدة المتهالكة على شاطئ المصرف لعل أحد أغصانها يقترب منه فيستطيع أن يمسك بطرف أحدها وينجو.

وبعد محاولات مضنية وكأن الله استجاب لدعائه، حرك الهواء أغصان تلك الشجرة المتهالكة الحزينة، واستطاع أن يمسك بطرف إحدى أغصانها الضعيفة.

وما إن أمسك به وتسلل إليه أمل النجاة حتى فوجئ برنين تليفونه الذي كان قد نسيه تماما. هزته المفاجأة ولم يشعر بنفسه ويده تترك طرف الغصن ليذهب بعيدًا عنه.

وهنا انتقل أمله من الغصن إلى التليفون لعله يستطيع أن يطلب سائقه أو أسرته أو فريق الإنقاذ بشركته. لكنه فوجئ أن صوت التليفون قادم من قاع المصرف العميق. كادت أنفاسه أت تُشَل بعد أن فقد الغصن وفقد التليفون.

عاد لمحاولات الإمساك بطرف الغصن مرة أخرى ولكن باءت محاولاته هذه المرة بالفشل، ولم يستطع الإمساك بالجذع المتهالك على شاطئ هذا المصرف الكبير الذي لم يتخيل أبدًا أن يبتلعه هكذا في

يوم من الأيام، بل لم يفكر يومًا أن ينظر إليه رغم أنه يمر عليه كل يوم في طريق الذهاب والعودة من وإلى مصنعه.

ظل ينادي بأعلى صوته لعل أحد يسمعه وينقذه ولكن لم يكن هناك سوي ماء المصرف الآسن والملوث، والرائحة النفاذة التي كادت تكتم أنفاسه، والسكون الذي يخنق الهواء حوله، وضوء القمر الذي يستأنس به في هذه الظلمة الكالحة، وشاطئ المصرف اللعين الذي أصبح كل أمله في الحياة الآن أن يلمس أحد الأحجار البيضاء الكبيرة الملقاة على جوانب الشاطئ.

ظل يصرخ في الهواء لعل صراخه يلفت السمع لكن لم يسمعه أحد، فالوقت قد قارب على الفجر ولا يوجد هناك سوي صوت نقيق الضفادع، لكن الضفادع لا تهتم بصراخ وعويل البشر.

أصبحت حياته رهينة الجذع المتهالك لغصن متهالك لا يتحرك وهو عالق وسط المياه الآسنة والتي تكفي رائحتها النفاذة لكي تقضي عليه. أغلق فمه تماما حتى تطال المياه فمه والتي لو تسربت لحلقه لزهقت روحه على الفور.

ظل ينظر للحجارة الناصعة البياض على جوانب المصرف متمنيا أن يشرق النهار الآن ويجد نفسه ملقًى هناك على إحداها ولو عاريا.

توقف قلبه وشهقت أنفاسه عندما شعر بسيارته تغوص به في قاع المصرف في هدوء وكأنها قررت أن تكون النهاية الآن في تلك

اللحظة الحاسمة. ظل يصرخ ويصرخ لكن سيارته لم تُسمع لصريخه الذي ملأ الفضاء.

أغمض عينيه وفمه واستسلم للموت القادم وسط هذا المصرف الذي سيكون مقبرته بعد قليل. تعجب كيف يشاء القدر ما لم يكن أبدا في الحسبان؟ وكيف يقبض ملك الموت روحه في هذا المكان الملوث. تعجب لماذا لا يرسل الله ملاك الحياة لينقذه بدلا من أن يرسل ملاك الموت.

تجمعت الدعوات في صدره كالجبال وبدأ يتذكر كل قرارته الظالمة والمتعسفة والفاسدة والملوثة كتلوث هذه المياه التي تحيطه من كل جانب. تذكر الآن فقط أن مصنعه هو الممول الرئيس لمياه الصرف التي تصب ليل نهار خلسة في هذا المصرف اللعين.

تعجب كيف نسي هذا؟! وكيف حاول مرارا وتكرارا وبكل نفوذه أن يمنع عمال تبطين هذا المصرف بتلك الحجارة البيضاء الملقاة هناك منذ شهور على جوانبه؟! كيف استطاع تعطيل عملية التبطين هذه حتى فشل حديثًا أمام القرارات الجريئة للمسئول الجديد القوي الجريء الذي لم يهتم بطرقه الملتوية فكان القرار ببدء عملية التبطين غصبًا عن كل الفاسدين؟!

تعجب كيف نسي كل ذلك وكيف تكون نهايته على يد الفساد الذي تسبب فيه. تعجب كيف أن خروجه اليوم بسيارته وحيدا في هذا الليل باحثا عن حل، هو بمثابة الخروج الأخير لنهايته على يد أفكاره الملوثة التي

تصب في هذا المصرف اللعين. تمني لو كان قد سمع نداء من نصحوه ولكن الأوان قد فات.

وهو وسط كل هذه الأفكار التي تعصف بعقله وقلبه دون أن يستطيع أن يفتح فمه ليصرخ خوفًا من ابتلاع المياه الملوثة، سمع حفيف أقدام تقترب من المكان رويدا رويدا. كاد يشهق من الفرحة عندما فتح عينيه بصعوبة بالغة ليري مجموعة من الرجال قادمون نحو جوانب المصرف وهم يرفعون أصواتهم بنشيد الهمة والعزم والتوكل على الله. حبس شهقته حتى لا تتسرب المياه الملوثة إلى فمه وجوفه وتمني لو يسمعوا أنين حنجرته.

وقف الرجال في حلقة كبيرة على شاطئ المصرف ووسطهم رئيسهم يوزع عليهم أعمالهم. وبعد دقائق انفضت الحلقة وانتشر الرجال في الموقع كل في مكانه ليبدأوا أول يوم في عملية تبطين المصرف بالحجارة البيضاء بعد تعطيلها من شهور عديدة.

فجأة علا صياح الرجال عندما رأوا رأسًا بارزة من سطح مياه لشخص في طريقه للغرق. جري الجميع ومعهم رئيسهم نحو تلك الرأس الغارقة وسط مياه الصرف القاتلة.

وبدون تفكير نزل الرجال إلى عمق المصرف متمسكين بحبل غليظ وبقارب صغير كان معهم لزوم نقل الحجارة من مكان لآخر. وما إن أمسكوا برأسه حتى حمدوا الله أن أول يوم في عملهم بدأ بإنقاذ حياة

من الموت. هلل الرجال وحملوا الرجل المتهالك من الماء النتن نحو الشاطئ.

ألقوه على الحجارة البيضاء وبدأوا في إسعافه وهم لا يعرفونه وهو يعرف رئيسهم ولكنه غير قادر على الحديث معهم، ولكن جوفه ملآن بشكر الله على إرساله هؤلاء الملائكة بدلا من ملاك الموت.

وما إن نظر رئيسهم في العمل إلى وجه الرجل حتى تعرف عليه ولكنه حبسها في نفسه حتى حين. وما إن فتح الرجل المهم صاحب المصنع عينيه وفمه حتى تعرف على رئيسهم في العمل فقد كانا دائما كالقط والفأر.

وها قد أصبح القط أسدًا والفأر في المصيدة. تبادلوا النظرات العميقة لثوانٍ معدودة قبل أن يبدأ الرجل في النداء على رجاله بعمل اللازم نحو إنقاذ الغريق وإنقاذ سيارته دون أن يفصح عمّا بداخله. نظر الغريق بعين على المصرف اللعين وبعين أخرى على الحجارة البيضاء.

وفجأة استعاد قواه الخفية ونهض ليمسك بأول حجر أبيض ويحمله بين يديه ليضع حجر الأساس في تبطين المصرف. قضي بقية اليوم وسط العمال في تبطين أول جزء من المصرف.

وبانتهاء اليوم نظر الغريق صاحب المصنع إلى العمال نظرة لم يفهمها إلا رئيسهم، نظرة توبة وخجل وأسف من الماضي وهو ينظر على الحجارة البيضاء التي شهدت ميلاده الجديد.



نظر على الشاطئ ليجد سيارته السوداء محملة على ونش الإنقاذ وهي تنظر إليه بعيونها الغاضبة تناشده أن يأخذ عبرة من هذا الدرس القاسي بعد أن غرقا سويا على يد مياهه الملوثة.

نظر إلى سيارته بخجل ووعدها بأن يكون رجلا لون عقله وقلبه بلون الحجارة البيضاء، وعلى وعد بأن يغير لون سيارته هي الأخرى إلى اللون الأبيض.



شهيد الحب

مشي بخطوات حثيثة يعدها عدا وراء أريج آثار قدميها وشذا حروف كلماتها المتناثرة في الهواء الذي يتنفسه شهيقا حتى أدمنه ولا يريد أن يخرجه زفيرا أبدًا لولا حبه البقاء حيا من أجل أن يتنفس المزيد.

مشت أمامه بين صديقاتها ضاحكة ضحكة كنسمات الربيع التي لا تعرف شتاء ولا خريفا من قبل. مشت الهوينى والجمال يتناثر من ملامحها فيزين كل شيء حولها ويجمله ولو كان قبيحًا.

تمنى ولو لم تتوقف عن المشي ولا الحديث حتى يرتوي بأريج أقدامها ويتنفس أريج حديثها.

تملكه حبها وعشقها ولا يستطيع البوح لها بمشاعره التي نبتت فيه منذ أن رأي عينيها أول مرة تدور في المكان باحثة عن مقعد ترتاح

فيه حتى يأتي دورها في طابور انتظار الاستعارة من المكتبة العامة بعد أن توقفت خدمات (الانترنت) تماما في المدينة بسبب عطل فني منذ أكثر من ثلاثة أشهر.

لم يصدق لحظتها وجود جمال ورقة وعذوبة ودلال كالذي يراه فيها الآن. تجمدت عيناه وتسمرت كل الخلايا فيها على ملامحها. لم ينقذه من هذا الموقف سوي النداء على اسمه في طابور الانتظار.

تلعثم لثواني ولكنه سرعان ما لملم أشلاء نفسه حتى طلب منها برقة بالغة أن تأخذ دوره حتى لا تطيل الانتظار. شكرته بإيماءة رقيقة كادت أن تذيب قلبه وأضلعه تحت قدميه.

أنهت الاستعارة وحملت كتابين بين ذراعيها وأخذتها خطواتها نحوه لتشكره بابتسامة رقيقة وهي تبدو كطفلة استلمت كتبها المدرسية لأول مرة.

وقف شاخصا أمام رقتها غير قادر على الرد سوي بهمهمات لم تفهم منها سوي أنه يريد أن يشكرها.

زادت ابتسامتها الخجولة من ردة فعله الصبيانية التي يبدو فيها ذروة الإعجاب بها ولكنها استأذنت مسرعة لتركب سيارتها تاركة ابتسامتها تزين المكان وأريج كلماتها يعطر المكان.

فكر في الاعتذار عن دوره ليلحق بها استجابة لقلبه ولكنه توقف عندما نودي على اسمه مرات ومرات.

ومنذ ذلك الوقت وقلبه أسير حبها وأصبح يتردد على المكتبة العامة كل يوم على أمل أن يراها مرة ثانية وهي ترد الكتابين، ولكنها لم تأت إلا بعد أسبوعين كانوا له كسنتين كبيستين تحول قلبه فيهما إلى قطعة من الخبز أحرقها فرن الحب.

"أهلا، إزي حضرتك، سعيدة أني قابلتك مرة أخرى وشكرا جدا على موقفك الراقي معي المرة الماضية". وجهت له هذه الكلمات فور أن لمحته من بعد. وما إن سمع تلك الكلمات القليلة المنقوعة في عصير من الرقة والعذوبة منها ووصفها إياه بالرقي حتى كادت دموع الفرحة تنساب من مقلتيه، ولكنه تماسك وحاول أن يبدو قويًا رغم أنه يشعر بألف صبي وطفل بداخله يتنافسون في محاولة لمس فستانها الجميل.

- حضرتك منتظر في الطابور علشان استعارة ولا رد الاستعارة.

همست بتلك الكلمات وعيناها على شفتيه المرتعشتين رغم الفحولة التي تبدو في ملامحه والرجولة التي تعكسها مقلتيه والوسامة التي تزين وجهه البريء.

حاول ان يرد لكنه لم يستطع الرد رغم أنه صاحب الكلمات المفوهة بحكم عمله. ظل ناظرًا إليها بقلب يرتجف وعيون عاشقة تفضح العشق المختبئ فيها من الخجل.

تشجع وأمسك بالخطاب الذي أعده مسبقًا وكتب فيه كل ما خطر على قلبه وأملته عليه مشاعره طيلة أسبوعين ترك العنان فيهما لقلبه

يعبر نيابة عن شفتيه كيفما يشاء. أمسك بالخطاب وقدمه إليها بأنامله المرتعشة التي تحول كل منها إلى قلب نابض.

سيدتي، أنا هنا اليوم وكل يوم على أمل رؤياك مرة أخرى منذ أن التقينا لأعطيك هذا الخطاب نيابة عني والذي أتمني أن يكون ضمن استعارة اليوم.

اندهشت من رد فعله وهذا الخطاب فهي لم تتوقع أبدا أن يغازلها بخطاب رغم أنها شعرت بإعجابه الشديد المرة الماضية. لكنها قررت انت قبل الخطاب بدون تردد وكلها شغف أن تري ما خطه فيه من كلمات تحسبها مفخخة بالمشاعر كما يبدو من نظرات عينيه. شعرت بتيار من الحب يسري من بين أنامله وهو يسلمها الخطاب.

شعرت بقشعريرة تسري في عروقها لكن سرعان ما انتبهت ووعدته بأن تقرأ الخطاب فور عودتها للمنزل.

ظل منتظرا طوال اليوم لعله يفوز باتصال منها كما طلب في خطابه بعد أن تقرأه ولكن اليوم طال دون اتصال.

مر يوم واثنان وثلاث حتى جاءت أجمل لحظة في الوجود عندما جاءه اتصال كان وراءه صوتها الدافئ الذي يحمل بداخل نبراته صوت كل الحسناوات الرقيقات.

كانت اللحظة من أرق ما تكون فقد كانت كلماتها أرق من النسيم وأروع من الربيع، كانت كلماتها مثل حفيف الشجر السعيد في مساء ربيعي خلاب. استمرت في حديثها الجميل وهو يستمع إليها كالطفل

الذي ينصت إلى حديث أمه قبل النوم ولكن بقلب وعيون لا تريد أن تنام من حلاوة الحديث.

سألته "لماذا لا تتكلم معي وتعلق على كلماتي؟". رد عليها بنبض قلبه المرهف: "لا أريد الآن سوي أن أسمع صدي صوتك يتردد في قلبي وهمس أنفاسك تروي صدري حتى أرتوي فالخوف يملئني سيدتي أن أصبح كالأرض (الشراقي) بعد هذا الحلم العذري الجميل".

بخجل يتساقط من شفتيها، تنهدت بشفقة تصحبها رقة تذوب فيها عذوبة وقع تعلو قلبه كرذاذ المطر في ليلة صيف قائظ: "أنت إنسان رائع ولديك مشاعر رقراقه وفياضة تتمناها أي فتاة في الوجود لتفوز بكل هذا الحب وهذه المشاعر، ولكني للأسف سيدي قلبي مرتبط بحبيب".

لم يستطع أن يرد، رغم كل محاولاته في الرد، وظل ممسكًا بسماعة الهاتف ولا يريد أن يفيق على صدمة نار هذا الحريق.

ولما أدركت أنه وقع فريسة صدمة الاعتراف ولم يستطع أن يرد، تركته معلق على الهاتف وهي تردد تمنياتي لك بحب كبير مثل قلبك الكبير. ظل يستمع إلى صوتها وكأنها تردد أغنية من ألف ليلة وليلة...

ومنذ اللقاء الأول وهو مازال يقرأ نفس الكتابين بنهم وحب فيكفي أن يديها قد لمستهما وأن أناملها قد قلبت في الصفحات وأن عينيها قد تأملت في الكلمات.

ومازال يقرأ الكتابين بحب شديد حتى حفظهما عن باطن قلب وحتى كتب كتابا فيهما ليشفي حنين قلبه وحتى كتب كتابا آخر يتخيل فيه حبه وعشقه...

ومنذ آخر حديث على الهاتف وهو يمشي وراءها يتعقب أريج قدميها، ويستنشق شذا عبير كلماتها المبعثرة في الهواء دون أن تشعر به أو تراه حتى لا تحرمه من شذا الطريق فقد أصبح شهيد الرقة والعذوبة والحنين للحب...



رمال الحرية

وقف فوق الرمال الساخنة كفهد كان مقيدا سنوات طوال في قفصه. تارة يطلق وابل من الرصاص من بندقيته الألية تجاه جنود العدو كلما أطلّ أحدهم برأسه من الخندق المصفح محاولا الهروب من لهيب النيران وصيحات الله أكبر التي تهز رمال الصحراء. وتارة أخرى يلقي بالبندقية بجانبه ويرفع "الأربي جيه" على كتفه ليصوبه بشهية النصر على دبابة للعدو قادمة مندفعة كالثور الهائج فتقع صريعة على مرمي بصره.

ومع كل رصاصة وكل دانة يطلقها تعلو تكبيراته عنان السماء بصيحات الله أكبر. وما إن شاهد زملاءه الجنود يهجمون من كل صوب على الأعداء الذين بدوا كفراخ بلا صاحب، سارع في تسلق الربوة العالية التي صنعتها مخلفات الطلقات والدانات والعربات المدرعة للعدو والتي

غاصت في رمال سيناء وهي تتأوه من الهزيمة الثقيلة فقط بعد ست ساعات من الضربات الموجعة منه ومن زملائه الأشاوس.

وما إن اعتلي الربوة وتوسط قمتها حتى أمسك بخفة العلم الملفوف حول وسطه منذ الصباح. قام بسرعة فائقة وبمهارة عالية بفك الحبل حول العلم ليثبته على الساري لينفرج العلم ويعلن عن النصر ويرفرف في سماء سيناء في فرحة عارمة. وما إن رأي الجنود العلم شامخا في السماء وفوقه علامات النصر وتحته ركام الهزيمة حتى هللوا وكبروا "الله أكبر". تحول كل منهم إلى مدرعة تضرب في العدو أمامها بلا هوادة. أصبحت كل حبة من رمال سيناء لؤلؤة في عقد النصر.

امتلأت السماء بأسراب من الطائرات الجائعة للنصر وانطلقت المدافع تزغرد بطلقات الحرية وانطلق صدي صوته يكبر عاليا "الله أكبر وتحيا مصر".

نسي أنه في معركة حامية وظل ممسكا بالعلم ممنيًا نفسه باللحظة التي يعود فيها من المعركة منتصرا حاملا على كتفيه علم مصر ليحكي لطفلته الوحيدة كيف كان يحارب؟ وكيف رفع العلم وكيف كانت صيحات الله أكبر تهز السماء وتزلزل روح الأعداء.

كم يشتاق لهذه اللحظة التي يري فيها عيون طفلته؟ وهي تتابع شفتيه وهو يحكي عن قصص النصر ومعارك الحق ونجاح الصبر في هزيمة العدو. كم يشتاق إلى يديها وهي تحمل معه العلم عاليا بعد أن يحكي لها كيف قاتل بشراسة حتى رفعه في أرض المعركة بكل ثقة وعزة وشوق.

تعاظم اشتياقه لطفلته، وتعاظمت تكبيراته في السماء، وازدادت رفرفة العلم في هواء الحرية وصوت المدافع ورائحة النار والدخان تملأ المكان.

وبسرعة فائقة أمسك ببندقيته الآلية وضغط على الزناد ليقتل خمسة من جنود الأعداء المتسللين مرة واحدة وكان القدر يضرب معه برصاصات من السماء.

ولكن جاءته رصاصة من السادس لتستقر في عنقه المرفوع عاليا وهو ممسكا بإحدى يديه بعلم بلاده. حاول أن يتماسك والساري في يديه ولكنه ترنح حتى سقط جسده المغطى بالدماء على رمال سيناء التي احتضنته في كبرياء.

وقبل أن يسقط، جري جندي في الميدان كان يراقبه ليقضي على الجندي السادس والتقط زميله الساري قبل أن يسقط.

ظل العلم يرفرف عاليا وظلت روحه ترفرف عاليا محلقة في سماء الحرية وهو مازال مشتاقًا إلى لقاء طفلته الوحيدة ليقص عليها معركته.

ومازالت طفلته الوحيدة التي صارت أُما تنتظر على أحر من الجمر أن تسمع منه حكاياته هناك ولكن في يوم آخر وفي حياة أخرى يحلو فيها اللقاء وتحلو فيها الحكايات.



بعيدًا عن زحام البشر

وقف الجمع في ذهول أمام الجسد الملفوف في ثوب من القماش الأبيض وبعض القلوب تبكي وبعض العقول شاخصة من هول الموقف وهم يشاهدون الجسد ينسحب من مرقده ويندس في حفرة في الأرض والتراب يلقي فوقها رويدا رويدا حتى غمرها تماما.

تسمرت العيون أمام هذا المشهد الرهيب الذي لا بديل له لكل العيون الناظرة سواء اليوم أو الغد أو بعد غد. تمتم الجميع بكلمات وهم يتركون المكان بعيدا عن الجسد ليبقي وحيدا تحت التراب. دعوا وابتهلوا قبل أن يرحلوا وهم يشفقون على الجسد المسجى بالتراب.

وقف الصبي غير بعيد ينظر إلى الجميع متعجبا. لماذا الشفقة والبكاء والنحيب، أهو على الجسد الذي انهال عليه التراب، أم على الروح التي صعدت إلى السماء لتكون بجوار ربها، أم على أنفسهم عندما يصيرون جسدًا بلا روح، أم هو الخوف من الخروج من الدنيا بروح واهية.

وقف الصبي متحيرًا وتمني أن يجد الإجابة عند أحدهم ولكن مشي الكل بهدوء حتى خرجوا من دار المقابر ليدخلوا دار الحياة الصاخبة.

وعندما خلا المكان شعر الصبي بيد حانية تربت على كتفيه وتهدهد أفكاره وكأنها قرأت ما يجول في صدره الصغير.

يا بني لا تقلق على من رحل فهو في معية الله وما أحلاها وأجملها وأطيبها من معية! لا ينالها عن حق إلا من رحل عن الدنيا بجسد تحت التراب هو مجرد وعاء أنهي مهمته وروح في السماء تبقي هناك أبد الدهر بعد أن تحررت من عبودية الجسد.

لا تقلق يا بني على من رحل فقد وجد نهاية الطريق ليلقي الله رب العالمين. ولكن فلتقلق على كل من هنا أو هناك على قيد الحياة. فقد يغلب الدنيا أو تغلبه في سباق مجنون والفائز من يغلب.

من رحل يا بني تحدد مصيره أما من بقي فهو ما زال على الطريق.
يا بني إنما بكاء الناس ليس على من رحل لأنه بين يدي الرحمن ولكنه البكاء على النفس عندما تفيق على لحظة رحيل.

تمتم الصبي بكلمات لم يفهمها الشيخ ولكنه أمسك بيده ليستند عليه حتى تركا المكان ورائحة الجسد مازالت هنا قبل أن تتحلل في أيام ثلاث تحت الثري دون أن يدري بها أحد. تركوا المكان وعيونهم شاخصة للسماء لعلهم يروا الروح الشفافة التي صعدت بمعية الله بعيدا عن زحام البشر وثري الأرض والخوف من المصير.



أطفال لا تعرف الخوف

قفز من سريره كمن يهرب من ثعبان النوم ومن عقاب التأخير في العمل وارتدي ملابسه على عجل وخرج مسرعا من غرفته ناسيا حتى أن يصلي ويطبع قبلة الصبح على جبين أمه التي استيقظت مبكرا تعد له الفطور كعادتها كل يوم.

وهو يهبط سلالم المنزل شعر بقلق يملأ صدره وخوف يحتل عقله ولا يدري لماذا رغم أنه نام مبكرا ورغم أنه ليس هناك ما يعكر عليه صفو حياته الهادئة. نزل الشارع ليستقل سيارة الأجرة إلى عمله؟ ولكنه فوجئ بخلو الشارع تماما من الرجال والنساء على غير العادة رغم أن الوقت هو وقت الزحام للعمل واليوم يوم عمل.

تعجب من خلو السيارات من الركاب وخلو الشوارع تماما من الناس إلا من الأطفال اللذين يلهون هنا وهناك.

أصابته الدهشة وجري نحو الأطفال يسألهم لعل لديهم جواب.

وما إن رآه الأطفال قادما نحوهم حتى صاحوا في لهو وانفجروا في نوبات من الضحك الهيستيري: ألا تخشي من خيالك يا (عمو)؟

نظر معتز بدهشة للأطفال ورد بسخرية ممزوجة بابتسامة تخفف من حدة السخرية: أنا لم أخشَ من خيالي طوال عمري وحتى وأنا في عمركم، فلم يعد هناك أحد في هذا الزمان يخشى من خياله. هل تخافون أنتم من خيالكم؟!!!

رد الأطفال وهم مازالوا ينظرون إليه متعجبين من جهله بالموقف "إحنا يا عموا مش بنخاف من خيالنا وإحنا ما نقصدش المثل اللي يقولوه الكبار عن اللي بيخاف من خياله".

"إحنا يا عمو فعلا بنستغرب إنك مش خايف من خيالك".

رد معتز بمزيد من التعجب "طيب ولماذا أخاف من خيالي ونحن في وضح النهار؟".

رد أحد الأطفال: "يا (عمو) بص على خيالنا وبعدين خيالك وانت تعرف".

لم يفهم معتز ما يقصده الأطفال ولكنه بحب الاستطلاع نظر على خيال أحدهم ففوجئ بكتابات عليه واضحة ومقروءة.

تعجب معتز وازداد تعجبه عندما رأي كلمات على الخيالات الأخرى لباقي الأطفال. اقترب من أحد الخيالات ليقرأ ما كُتب عليها ففوجئ أنها عبارة عن اعترافات فكرية لصاحبها وبالطبع كلها عن اللعب واللهو والدراسة لهؤلاء الأطفال الأبرياء.

اقترب منه أحد الأطفال "صدقت الآن يا عمو أنك ممكن تخاف من خيالك زي كل الناس وعلشان كده منزلوش الشغل ولا الشارع النهاردا علشان ماحدش يشوف اعترافاتهم".

وهنا تسلل الخوف إلى قلب معتز ولكنه كيف يقرأ خياله فكلما استدار وهم بقراءته وجده وراءه.

جُنّ جنونه وخشي أن يكون كلام وتحذير الأطفال حقيقيا وهو لا يدري خاصة أنه لا يري حوله في الشارع أيا من المارة سواء من الرجال أو النساء في هذه الضحى. طلب من أحد الأطفال أن يقرأ له الكلمات على خياله.

وما إن أنهي الطفل قراءة الكلمات حتى تأكد لمعتز أن كلامهم حقيقة وأنه بالفعل يجر وراءه اعترافاته الفكرية وهو لا يدري.

شعر معتز بخجل شديد من الأطفال بعد أن علموا بأفكاره التي تسيل أمامهم من عقله فتنساب على خياله في صورة كلمات تفضح أسراره.

جن جنون معتز وجري في الشارع نحو مسكنه يجري لاهثا ووراءه خياله يحمل اعترافاته. وما إن وصل إلى باب عمارته حتى ألقى بنفسه على السلالم حتى تأكد له اختفاء خياله.

دخل بيته مسرعا وتأكد من غلق ترباس الباب جيدا وجري نحو حجرته ليلقي بجسده وبقايا خياله على سريره غير قادر على الرد على والدته التي تعجبت من عودته السريعة ودون أن يلقي عليها التحية.

جرت عليه والدته منزعجة خوفا من أن يكون قد أصابه مكروه في الشارع. سألته: "مالك يا بني، فيه إيه، أول مرة أشوفك كده، زي ما تكون خايف من خيالك".

رد معتز: "أنا فعلا خايف من خيالي، وخيالي ساكن جوايا".

ظلّ معتز يردد كلمات الأغنية الشعبية التي غزت مسامع الناس في الأيام الأخيرة: "خيالي ساكن جوايا" والتي لا تروق لها.

ابتسمت وتركته يستمتع بالأغنية وراحت تنهي أعمال البيت وهي تدندن أغنية "يا عيني على الصبر يا عيني عليه".

اندس معتز بجسده المرتعش تحت غطائه رغم حر اليوم القائظ متمنيا أن يكون ما رآه في الشارع كابوسا وإلا فضحه خياله إذا هم بالخروج إلى الشارع.



مشاعر من السماء

لساعة الفجر مذاق خاص لدي صابرين، تتذوقها بكل جوارحها تحت إشراف روحها التي تعشق هذه الساعة فتجعل منها أربعة وعشرين ساعة تنهي فيها طقوس الصباح من الوضوء، والصلاة، وتحضير الفطور للأبناء. ترتب كل ما هو مبعثر من ليلة الأمس بفعل شقاوة الأولاد بعد أن تخلد لنومها مبكرا لتأخذ قسطا من الراحة تستعين بها للتغلب على شقاء يوم قادم. يوم لا تستطيع الهروب منه ولا من أعبائه وأناسه.

بسرعة وضعت يديها النحيفتين تحت صنبور المياه الذي لا يعرف سوي البرد الشديد في هذا الشتاء القارص. غسلت يديها ووجهها

ومسحت على رأسها وقدميها وهي تستحلفهم ألا يتأففوا من برد المياه وغياب الماء الساخن.

وبسرعة جرت على المنشفة الملقاة هناك على سريرها الذي يبدو أنه يحتاج إلى سرير آخر يحل محله بعد أن تهالك. وبسرعة فردت سجادة الصلاة ووقفت دقيقة حدادًا على حظها العسر الذي قارب على الاحتضار ولا يريد أن يموت أو يعتذر.

استعاذت بالله من الشيطان الرجيم مع أن الشيطان نفسه لا يبذل أي جهد في مغازلتها. سمت الله ورفعت يديها حول رأسها بفرحة وابتسامة وخشوع وكبرت لتبدأ أجمل خمس دقائق تقضيها بين يدي الله كل صباح.

وقفت صابرين أمام الله تناجيه بما تحفظه من الفاتحة وكلمات اخترعتها هي بلغتها التي لا يعرفها أحد سواها، لغة جعلت من الكلمات البسيطة دعاء وحوارًا مع الله، تدعوه أن يرزقها بالحلال، ويكرمهما في أولادها، ويعطيها الصحة وطول العمر ليس من أجلها هي لكن من أجل الأبناء. وقفت صابرين بين يدي الله كرابعة العدوية ولكن في جلباب داكن لا تعرف لونه. جلباب خيوطه تعلن احتجاجها من كثرة غسيلها ونشرها في الشمس بلا أي رحمة أو راحة.

ألقت التحيات على النبي وأولياء الله الصالحين ثم صلت على سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم لتنهي ركعتي الفجر بعد أن تذوقت حلاوة لقاء الله، ومعني الحرية المطلقة، ومعني الحضور الإلهي،

والحمى الرباني، وغناء النفس، وطعم الدعاء الذي يريح قلبها المتعب بالأحمال والهموم، وعقلها الساخن من لهيب مطالب الحياة.

سحبت السجادة وبسرعة ألقتها على السرير بجانب المنشفة وأسرعت نحو المطبخ لتتعامل كملاكم في حلبة الصراع مع الأطباق والحلل والمعالق والسكاكين.

لا تمر ساعة من هذه المعركة حتى تترك صابرين كل ما في المطبخ يبرق لها امتنانا لما قامت به من حملة غسيل وتنظيف كبرى.

وبسرعة أمسكت "المقشة" لتكنس صحن الدار قبل أن تفرش عليه حصيرة كل يوم وعليها طبلية الفطار. وبسرعة أحضرت أطباق من الفول والجبن والخيار والجرجير على الطبلية وجرت هناك نحو الغرفة الوحيدة التي تأوي أطفالها الأربعة.

كعصفور ينقر عشه بحنان، ألقت صابرين سيمفونية كل صباح على آذان الأولاد كمنبه لكل صبح، أولاد كفراخ لا تعرف سوي وجه أمها. صحا الأولاد في حضن صابرين ليبدأوا هم أيضا طقوس الصباح تحت نداء صوتها الذي ملأ الدار بالتفاؤل وهي تجري وراء هذا وذاك حتى ينهي كل منهم طقوس الصباح قبل أن يلتفوا حول مائدة الفطور.

توسطت صابرين الطبلية كالأميرة وحولها الأولاد يبتسمون لابتسامتها الصافية الجميلة لتبدأ الأيدي في تناول ما تجده أمامها على نغمات حديث الصباح من تلاوة الأوامر والنصائح من صابرين قبل أن

يبدأ الأولاد اليوم وما فيه حتى تعود هي لهم في آخر النهار بابتسامتها التي أصبحت علامة مسجلة باسمها.

وبسرعة لملمت بواقي الطعام ووضعته في المطبخ وتركت الطبلية كموقع حربي للمذاكرة الأولاد عند عودتهم من المدرسة.

دست نفسها في سترة العمل وخرجت مسرعة لتلحق (بميكروباص) كل صباح لتبدأ يوما جديدا لا يختلف عن كل الأيام قبله، سوي أن العمر قد أضاف يوما جديدة لعمر الأولاد ليكبروا سريعا كما تتمني، وهي تدعو الله أن يصبحوا رجالا وبناتٍ دون الحاجة إليها، كأولاد كل الناس.

وما أن وصلت المحطة وركبت الميكروباص حتى تحول المكان إلى الطريق ساحة عامة للحديث الذي يفضفض فيه الجميع وهي أولهم لتخرج ما في جعبتها من كل الكلمات الخفيفة الظل المغلفة بالضحكات والدعوات. تمثل هذه الساحة الكلامية لدي هؤلاء الناس كبسولة يومية كل صباح موادها الفعالة من مجرد كلمات هنا وهناك تقوي النفس قبل بداية عمل يوم شاق، وإن كانت هي نفس الكلمات ونفس الملامح في نفس الزمان ونفس المكان.

نزلت صابرين في المحطة المعتادة وخطت خطواتها السريعة كالعادة حتى وصلت إلى بوابة العمل لتبدأ في توزيع الابتسامات والدعوات الطيبة على كل من يقابلها، وكأنها أم أو أخت أو ابنة لكل من يعرفها في هذا المكان الذي يضج بالعاملين بمختلف الأعمار

والمستويات والأمزجة. اجتمع الجميع على حبها وتقديرها لحضورها الطاغي بابتسامتها وطيبتها وإخلاصها في العمل رغم كونها عاملة بسيطة.

وقفت في الصف الطويل تنتظر دورها مع العمال للتوقيع في دفتر الحضور. سريعًا، جاء دورها، رسمت في الدفتر توقيعها العجيب بحروف اسمها التي حفظت رسمها بصعوبة بالغة.

اليوم ليس ككل يوم، الشمس فيه ساطعة ومشرقة رغم البرد الذي يلفح الوجوه والأطراف. ولكن صابرين شعرت بدفء عجيب يسري في كل خلية بجسدها النحيل. تكاد تتحسس في نبض عروق جسدها هذه المشاعر. شعرت بجمال وحلاوة الحياة وكأنها وُلدت اليوم بلا أي متاعب أو هموم أو أحزان. توقفت برهة وهي تمشي وسط زملائها في طريقهن لإنجاز أول تكليف لهم هذا الصباح وهو حمل مجموعة من المخلفات الخشبية والورقية الثقيلة من الدور السادس إلى المخزن العام في الدور الأول لحين التخلص منها.

وقفت برهة تفكر في هذه الأحاسيس التي انتابتها اليوم وتشعر بها تجري في كل وريد وشريان يخرج من أو يصب في قلبها الحنون. فرحت بهذه الأحاسيس رغم أنها لم تعرفها أو تتذوقها من قبل. تمنت لو تبقي هذه الأحاسيس تجري في عروقها بلا نهاية، تمنت لو كانت في غرفتها الآن وبجوارها أولادها ليتحسسوا بأنفسهم هذه المشاعر الجميلة من دفء الروح وحلاوة الحياة.

جذبتها صديقتها المُقربة من طرف ثوبها بشدة لكي تلحق بهم، فأعمال اليوم كثيرة ومجهدة. وبسرعة نزعت صابرين عقلها وقلبها من تلك الأحاسيس لتمشي معهن ولكن عقلها الباطن مازال يتساءل عن سبب كل هذه الأحاسيس الجميلة، التي جعلتها ولأول مرة تشعر وكأنها إنسان آخر يجلس على قمة هذا العالم وينظر للجميع بحب ورضاء وسكينة، وكأن كل هذا العالم تحتها ملك لها.

ولما أسرّت ببعض من أحاسيسها لصديقتها وهي تساعدها في رفع أحد المخلفات على رأسها، أطلقت صديقتها ضحكة من أعماق قلبها على هذا الخيال الجامح، ونظرت إليها نظرة تجمع بين التهكم والشفقة، ولم تُعلق. ضحكا سويا واستمرا في العمل بلا انقطاع.

مرت ساعتين كاملتين في نقل المُخلفات، فشعروا جميعا بإجهاد من كثرة الأحمال وطلبوا راحة لبعض الوقت قبل أن يُكملوا بقية اليوم. ولكنها لم تُرد أن تتوقف وطلبت أن تستمر في العمل بمفردها. تعجب الجميع منها ولم يعلقوا على طلبها المجنون، إلا صديقتها، التي جذبتها من ذيل جلبابها مرة أخرى ونهضت لتمسك بيدها وتأخذها إلى ركن قريب لتسألها ماذا بك اليوم يا "صبورة"، كما تعودت أن تناديها في أوقات الشدة أو المرح.

ردت صابرين بابتسامة مغلفة ببريق من الحكمة والرضاء والسكينة الممزوج بحلاوة الحياة التي تشعر بها تجري في عروقها، لا أدري ولكني أشعر بأني اليوم لست ككل يوم. أشعر أني أميرة متنكرة في جلباب أسود

فقير، أشعر أني مديرة بل صاحبة كل هذا المكان، أشعر بزوجي الذي رحل منذ سنوات ينظر إلي ويضحك وهو يحمل بدلا مني كل هذه الأحمال، أشعر بأولادي الأربعة وكأنهم أصبحوا رجالا وفتيات مثل الأمراء والأميرات وأنا أتبختر بينهم ملكة ليس لي مثيل. أشعر وكأن اليوم هو اليوم الذي خرجت فيه من رحم أمي بلا أي ذنوب أو ديون أو هموم. أشعر وكأني سيدة ككل نساء العالم الذي لا يحمل هموم الدنيا فوق رأسه وعلى كتفيه وعلى صدره. أشعر أني لست أنا. أشعر وكان اسمي ليس صابرين.

نظرت إليها صديقتها نظرة كادت أن تخترق عيون صابرين، التي لمعت بدمعات أبت أن تتساقط على وجنتيها. وضعت راحتها على جبينها تتحسس حرارتها مخافة أن تكون مريضة وأصابها الخرف، ولكن كانت حرارة صابرين طبيعية. ماذا بك يا صابرين، من أين جئت بكل هذه الكلمات وكل هذه الأحاسيس. هذه أول مرة أسمع منك هذه التصورات بل أول مرة أراك هكذا، هل أنت بخير، هل حدث شيء ما لا أعرفه، هل شاهدتي فيلم عربي أو هندي أمس، هل تحاولين أن تُخيفيني كعادتك، هل تحلمين، هل شربتي "بوظا" فأسكرتك، ماذا بك أفيقي، واستعدي للجولة الثانية من رفع الأحمال يا أميرة يا ملكة يا مصونة. ابتسمت صابرين وكأنها تحمل سرا هي نفسها لا تعرفه. ضحكا سويا ونهضا مع باقي المجموعة لاستكمال رفع الأحمال على الهموم التي يحملونها فوق رؤوسهن.

ركبوا المصعد الكبير الخاص بالأحمال الكبيرة، ركبوا السبعة دفعة واحدة إلى الدور السادس المكتظ بالمخلفات. وقفوا السبعة أمام كومة المُخلفات، التي تبدوا لهم وكأنها لم تنقص كيلو واحد، متمنين أن يمتلك أحدهم مصباح علاء الدين الآن لكي يخرج لهن عِفريتًا يُخلصهن من كل هذه المخلفات دفعة واحدة. شعرت سيدة بما يدور في أذهانهن، فسبقتهن واستخدمت كل قوتها في رفع كتلة على رأسها وهرولت نحو المصعد لكي تحثهم على البدء في العمل بلا تكاسل.

هي لا تدري لماذا فعلت ذلك، أهي عادتها كما تعودت وتُحب أن تبدأ قبل الجميع وكما تعودوا منها، أم بسبب الأحاسيس التي مازالت تجري في عروقها وتزداد بقوة مع الوقت، حتى تملكتها وأصبحت جزء منها. لا تدري، ولكن ما تعرفه أن شيئًا ما بداخلها جعلها أقوي من كل يوم، جعلها لا تهاب الأحمال والشقاء، ولا المصعد ولا كثرة وطول العمل. شيء جعلها تنظر إلى زميلاتها وتطلب منهن أن يتركوها تنهي هذا العمل بمفردها، وهي إن شاء الله قادرة على ذلك.

ضحك الجميع على كلماتها وتناسوا ما قالته عن طيب خاطر وكأنها لم تقل شيئًا. حملوا ما خف من المُخلفات فوق رؤوسهن وتوجهن ورائها ناحية المصعد. هي تعدوا بخطواتها المسرعة لتسبقهن وكأنها لا تحمل شيئًا، وح يتعجبن منها ويدعون لها بالصحة وطول العُمر في دعابة تعودن عليها في مثل هذه المواقف المتناقضة.

وصلت المصعد، تصاعدت الأحاسيس في جسدها وفارت في عروقها، سمعت كلمات وضحكات صديقاتها، التفتت إليهن تبادلهن الضحكات، انفتح باب المصعد، دخلت فيه بظهرها ووجها المبتسم ينظر إليهم. اضطجعت على باب المصعد بظهرها لتدخل المصعد وهي تنظر إليهن بأنها قادرة وغير نادمة.

وما أن انفتح باب المصعد وراء صابرين حتى فوجئ الجميع بسقوطها كخرقة قماش بالية في جوف المبني الذي فتح لها الباب ولكن في غياب المصعد. شهقوا جميعا في نفس واحد شهقة رجت المبني بمن فيه، لم يدقوا حول ما رأوا. صرخوا بشدة، وهي لم يسعفها الوقت لتصرخ، فقد هوت في بئر المصعد المملوء قاعه بأسياخ الحديد، صعدت روحها قبل أن يمزق جسدها أسياخ الحديد. صرخت صديقتها المقربة وحاملة أسرارها، وظلت تصرخ وتصرخ ولكن صديقتها صابرين كانت قد هوت ومعها أسرارها بلا رجعة.

تحول المكان إلى مأتم وحسرات وبكاء على سيدة التي كانت من لحظات بسيطة تهرول بينهم وتوزع ضحكاتها ودعواتها وهي تحمل الأثقال برشاقة وخفة وقوة وإخلاص. شهق الجميع وتعجبوا كيف حدث ذلك بكل هذه البساطة. بكاها الجميع، ولكن صديقتها لم تستطع البكاء، فقد تحجرت الدمعات في مقلتيها من شدة الحزن. تذكرت كلمات وأحاسيس سيدة من لحظات وهي تُسّر لها عن مشاعرها اليوم. الآن أدركت صديقتها السر وراء كل تلك الأحاسيس. أدركت أن سيدة لم

تكن تهزي، ولم تكن تحت تأثير خرف المرض. ولكنها أدركت أن سيدة كانت تري بعيون مختلفة، وتسمع بآذان مختلفة. سيدة كانت تستعد للعالم الآخر وهي تحمل أثقال الدنيا فوق رأسها ودون أن تشعر بها. وهنا بدأت الدمعات الساخنة تنهمر من عيون صديقتها على فراق أعز الأصدقاء، وعلى عدم تصديقها لكل تلك المشاعر والروحانيات التي أنكرتها عليها. بكت بحرقة وتمنت لو كانت أخذت صديقتها في حُضنها قبل أن تودع هذا العالم على طريقتها.

رحلت صابرين وتركت جروحًا وعلامات في قلوب وأوراق وجدران المكان الذي لم ينساها حتى تأتي صابرين أخرى.



الخوف من الحياة

المشهد الأول

تخيل وأنت في طريقك لعملك في الصباح إذا بجراد يملأ السماء ويحجب عنك الشمس تماما حتى أظلم النهار وأصبحت لا تري تحت قدميك. وإذا بالسيارات حواليك تضيء فوانيس النور لتستضيء بها ولكنك تفاجأ بتخبط السيارات بعضها في بعض بسبب ملايين الجراد الذي غطي زجاج السيارات من الأمام والخلف.

ظل الناس في سياراتهم خوفا وجري الناس حولك يدخلون البيوت في الشوارع بصورة عشوائية هربًا من الجراد فإذا بأسراب الجراد تطير ورائهم وكأن هناك ثأر بين الجراد والناس. وهنا يخر الكل ساجدا

داعيا لله أن يزيح هذه الغمة والحناجر تعلوا بألسنة التوبة لله وطلب الغفران والندم عن المعاصي طمعًا في رحمة الله أن يزيح غمة جائحة الجراد.

وبعد صبر ساعات طوال مرت على الناس كالسنين العجاف بدأ الجراد بالفعل ينسحب طواعية من أرض المعركة رويدا رويدا تاركًا وراءه قلوبا دقاتها خوف، وشهيقها، وزفيرها من خوف ورعب. ترك الجراد وراءه عقولا يملؤها العجب مما حدث، فكيف فجأة يهبط عليهم من السماء أسراب الجراد حتى أصبحوا في كل مكان جاثمين خائفين. ترك الجراد أجساما منهكة بعقول وقلوب وجلة تعلقت برحمة الله.

لم تمر ساعات حتى انزاحت الجائحة تماما وكشفت السماء عن صفائها بلونها الأزرق الجميل، وفرح الناس بجمال النهار وانكشاف الغمة، وذهب كل إلى حال سبيله وكأن جائحة الجراد كانت كابوسا يجب نسيانه.

تناقلت كل وسائل الإعلام خبر الجراد حتى لم يعد هناك حديث يذكر إلا وكان عن جائحة الجراد حتى أطلق الناس على الشهر شهر الجراد. وانتهى الشهر بأحداثه وبدأ شهر جديد نسي فيه الناس رويدا رويدا ما كان من الجراد وكأنه كان خيالا علميا. وعاد الناس سريعا إلى حوائجهم ومشاغلهم وطموحاتهم وتنافسهم وكأن التوبة كانت مقرونة بذهاب غمة الجراد.

المشهد الثاني

بعد شهر وقد تنفس الناس الصعداء ونسوا أمر الجراد وانغمسوا في أمور الحياة، فوجئت وأنت تستيقظ من نومة هادئة هانئة بكومة من حشرة صغيرة لم نرها من قبل إلا في أفلام الأبيض والأسود وفي بعض كتب الطب التي قمت بدراستها من عقود.

كومة من حشرة أزعجتك وتعجبت من وجودها في سريرك رغم كل حرصك على النظافة الشخصية. وعلى الفور ناديت على مربية المنزل لتعنفها وتتهمها بالإهمال لكنها ظلت تدافع عن نفسها بلا فائدة. صرخت تنادي على أم الأولاد لتري بعينيها كومة القمل والبق، ولكنها تعجبت من المنظر القميء غير مصدقة وولم تجد تفسيرا.

رحت تقلب أنت وأم الأولاد والمربية باقي الأغطية والفرش في غرفتك وغرفة الأولاد لتفاجأ بأن القمل والبق هناك في كل مكان كالدود الذي يزحف على الأرض ولا يبالي. والأعجب أنه كلما قمت برش هذه الأكوام بمبيد الحشرات الصاعق ازدادت أكوام البق والقمل أعدادا وشراسة وانتشرت في كل مكان.

تحول الأمر إلى كابوس لا يمكن تصديق أنه واقع. حبست دمعات في عينيك عندما وجدت أطفالك في ذعر وهلع وخوف مما يرونه في كل

أركان المنزل وعلى السلالم وعلى التلفاز وفي المطبخ وكأن البيت كله قد تحول إلى معسكر للبق والقمل.

رفعت سماعة التليفون لتطلب النجدة وشركة مكافحة الحشرات فإذا بهم يخبرونك بآلاف المكالمات بنفس الشكوى من أنحاء البلاد أن البق والقمل في كل بيت وكل مكان في المدينة. وهنا فقط تذكرت أمر الجراد الذي كنت قد نسيته وتذكرت ابتهال الناس بالدعاء.

خرجت إلى شرفة بيتك تستنجد فإذا بك تجد الناس كلها تطل من شرفات بيوتها تتضرع إلى السماء أن تخلصها من هذه الغُمة.

علت الأصوات والحناجر بالدعاء لله وكأنه يوم الحشر.

ظل الناس يكبرون ويهللون بكل دعوات التوبة التي حفظوها عن ظهر قلب المعاصي والذنوب.

ظلوا يتضرعون لله أن يزيح عنهم هذه الغمة وهم ينذرون شتي النُذر من أموال وصلاة وزكاة وصدقات إن أزاح الغمة، وكأن توبة العباد أصبحت مشروطة بزوال الجائحة.

بات الناس ليلتهم في الشرفات يؤنسون بعضهم البعض والرعب يتملك قلوبهم من أكوام البق والقمل الذي أصبح يهدد حياة الكبير والصغير والغني والفقير.

أصبح حديث جميع وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي عن جائحة القُمَل والبق وكأن معارك الحياة تم اختصارها إلى معركة الإنسان مع هذه الحشرات التي أصبحت حديث المدينة.

امتلأت المساجد والكنائس بعباد الله يتعبدون ويتضرعون حتى اهتزت أركان بيوت الله بصدي الدعاء.

وبعد ثلاث ليال على هذا النحو قضاها الناس بدون نوم، جاء الفرج من السماء وبدأت أكوام البق والقمل تقل رويدا رويدا وكأن السماء استجابت لدعاء العباد أو بعض منهم بعد أن هدّ الجميع الخوف والرعب والسهر والدعاء.

أخيرا نام الناس في أسِرّتهم ثلاث ليال منحتها الحكومة للناس إجازة ليرتاحوا في بيوتهم وينظفوها من بقايا القمل والبق وليستعيدوا نشاطهم.

هدأ الناس وارتاحت قلوبهم متأثرين بما رأوا بأم أعينهم من جائحة البق والقمل. ولكن رويدا رويدا أخذتهم الحياة تماما كما حدث بعد انقضاء أزمة الجراد. هوجة بسبب الجائحة وخوف ورعب ودعاء ثم هدوء وعودة لمعارك الحياة. رأيتك وأنت تصرخ في الناس كعادتك ألا يستهينوا بجائحة الجراد ثم القمل وألا تمر عليهم مرور الكرام، ولكن كعادتك تصرخ بأعلى صوتك حتى ينفد حِبرك وينسي الناس.

المشهد الثالث

بدأ موسم الدور الثاني من الدوري العام لكرة القدم وتلاه مباريات نهائي كأس القارة لينشغل الناس صغيرهم وكبيرهم متعلمهم وأميهم في متابعة المنافسة الحامية كل مساء حتى الصباح.

وما إن انتهت المباريات حتى انشغل الناس بامتحانات الثانوية، وتنسيق الجامعات، وقضية قتل الأب لأسرته من قلة الحيلة، وقتل الابن لأبويه للطمع في المال، وخلافات الممثلة المشهورة مع ممثل مغمور وكيف أنه تطاول عليها بعد عشرة ثلاث سنوات بزواج عرفي.

غاص الناس في لُجة الأسعار وبحور الرغبات حتى أصبح النهار كالليل، لا أحد ينام إلا حرافيش القوم الذين لا يعرفون في حياتهم سوي لقمة العيش وما يستر الحياة فباتت الدنيا لهم بعيدة المنال بل من المحال.

مرت ستة أشهر كاملة حصل فيها أولادك وفلذات أكبادك وقرة عينيك على شهادات الإعدادية والثانوية العامة والجامعة بتفوق كبير أدمع عينيك وأثلج صدرك أنت وزوجتك وتحققت أمانيكم في أولادكم. وكم كان الاحتفال بنجاحهم في بيتك الكبير كبيرا وعظيما وبهيا ومهيبا تماما كما خططت له منذ سنوات.

احتفال حضره عِلية القوم من الأهل والأقارب والأصدقاء وكأنك أردت أن تدشن لأولادك أرضية قوية لمستقبلهم القادم على الأبواب أو بعض سنوات.

كان الاحتفال كعُرس بهيج وأنت بالطبع العريس وزوجتك العروس. رأيت الفرحة تطل من عينيك وشفتيك ووجنتيك، وكم أغبطتك في هذا اليوم فكم أحبك رغم اعتراضي على كثير من أمور حياتك التي يعلو فيها صوتك على أفعالك وإسرافك على كرمك.

لن أنسي هذا اليوم أبدا وأنت ترفع الكأس عاليا بإحدى يديك فخورا بأولادك وبعائلتك وبيتك وإنجازاتك، وبالطبع بحُلتك الأنيقة ورباط العنق الجميل.

لن أنسي نظرات عينيك الملآنة بالفرحة وأنت ترفع كأسك والكل وراءك يحييك بكأسه. وإذا بكل الكؤوس تتحول إلى بركة صغيرة من الدم، تقفز الضفادع من كل كأس في وجه الآخر من الحضور حتى تحول الحفل إلى مهرجان من الضفادع والدم.

تناثر الدم كالنافورة في كل مكان على السجاد الفارسي باللون القرمزي البديع.

لن أنسي أبدا هذا المنظر الدموي طيلة حياتي والدم يتساقط من الكؤوس في المكان كله حتى تحول إلى بركة حمراء تقفز فيها ومنها الضفادع وصوت نقيقها يعلو على كل الأصوات.

تخيل الحضور في بداية الأمر أن ما يرونه مجرد مقلب ظريف أعده مخرج عبقري كإحدى فقرات الحفل. ولكن اتضح بعد قليل وبعد هياجك أنت شخصيا وحالة الهيستيريا والهلع التي انتابت زوجتك أن الأمر حقيقة وليس خيالا.

لن أنسي أبدا هذا اليوم وتلك الأحداث الجسام وقلبي يتمزق على ما أري من ذهول في عينيك وصراخاتك الدفينة تكتمها حتى كاد قلبك أن يقف تماما وأنت تنظر في ذهول إلى الجميع وهم يصبون لعناتهم عليك، بعضهم يحاول الهروب من هذا المكان الملعون، وآخرون يطلبون النجدة والشرطة والإسعاف والوزارة.

الكل يتمني أن يحدث شيئا ما لوقف هذا الهراء الملطخ بالدم والضفادع التي كلما هم أحد القضاء على واحدة منها توالد مكانها عشرة حتى امتلأ المكان بآلاف الضفادع الميتة والضفادع الحية التي تقفز في كل مكان.

وعندما وجدتك في هذا الوضع المزرى تذكرت على الفور جائحة الجراد والبق والقمل رغم مرور عام تقريبا على الأولي وشهور على الثانية.

ولكني استنتجت أن هذا الدم وهذا الضفدع ما هما إلا جائحة أخرى تمر بالبلاد كلها وليس ببيتك فقط.

صرخت في الجميع بشكوكي تلك وطلبت من كل فرد من المدعوين أن يتصل ببيته ليسأل عن الأحوال. نظرت إلى ساعتها بعيون باكية وأنت حائر بين تمنياتك أن تكون شكوكي في محلها لكي تخرج من هذا

المأزق اللعين وبين تمنياتك ألا تكون جائحة على طول البلاد وعرضها فيتأذى الجميع.

لم تمر دقائق حتى تأكد للجميع أنها جائحة تعم البلاد كلها. خرجنا جميعا ننظر من الشرفات لنتأكد بأنفسنا، فإذا بالشوارع وقد تحولت إلى بركة من الدماء تعوم فيها وتقفز فوقها آلاف مؤلفة من الضفادع ونقيقها يعلو صرخات النساء. وهنا أُصيب الجميع بوجوم وهلع وخوف وتسمروا في أماكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون؟!

فتحنا التلفاز لنتأكد من الأخبار ففوجئنا بأن الجائحة قد عمت البلاد وقد عجزت جميع الهيئات الحكومية في التعامل مع تدفق الدم هذا وتوالد الضفادع في كل مكان. ولم يعد هناك سوي حل واحد وهو الدعاء إلى الله أن يرفع هذه الغمة ويزيل هذه الجائحة بفضله ورحمته ولو من أجل الأطفال والشيوخ. وقام رجال الأزهر والكنائس بدعوة الناس للذهاب إلى المساجد والكنائس والدعاء هناك والابتهال.

وبالفعل هرول الناس إلى بيوت الله يطلبون الرحمة من رب العباد، ومجري السحاب، ورافع السماوات، وباسط الأرض، ومرسي الجبال، ومجري الأنهار والبحار أن يتقبل توبة عباده عن المعاصي والذنوب، والغيبة والبهتان، والزنا والفجور، والقتل وسفك الدماء، والرشوة والربا، والاختلاس والمحسوبية، والاستهتار واللامبالاة، والظلم والجور في الحق، والنفاق والكذب، لعله يرفع هذه الغمة وهذا العذاب.

لن أنسي أبدا منظر الرجال والنساء في الصالة الفسيحة (لفيلتك) الفسيحة وهم يهرولون في الركوع والسجود على الأرض التي أصبحت بحيرة من الدماء يسكنها الضفدع. لم يفكر الحضور في هيئتهم ولا اختلاط أجساد الرجال بأجساد النساء شبه العارية.

تسارعوا في السجود والدعاء وإعلان التوبة عن المعاصي والذنوب كبيرها وصغيرها. واختلط الجميع والأطفال ينظرون في دهشة ودموع الخوف والرهبة تتساقط من عيونهم التي استغربت كل الأحداث ولا تجد تفسيرا سوي اللجوء للبكاء.

أتذكرك جيدا وأنت تقف وسط الجمع بعد أن لملمت نفسك المبعثرة وبعد أن تأكدت أن ما حدث ليس في بيتك وحدك بل في بيوت البلاد بطولها وعرضها، وليس في بلدك وحدك بل هي جائحة ألمت بالعالم أجمع، تماما كما حدث في جائحة الجراد والبق والقمل منذ شهور.

رأيتك تقف والدماء تحت قدميك والضفدع يقفز حواليك والدموع تنهمر من عينيك لتُذَكر الحضور بما كان من جائحة الجراد وكيف أنها كانت سوف تقضي على الأخضر واليابس، وكيف أنها لم تنقشع إلا بإعلان الناس عن توبتهم وبدعائهم وتوسلهم إلى الله، وكيف أن الله كشف الغمة وأزاح البلاء بعد مرور بضع ساعات.

عاد الناس إلى ما كانوا عليه من بُعد عن الطريق المستقيم فجاءت جائحة القُمَل والبق والتي حولت حياة الجميع إلى جحيم لعدة أيام طوال وليس فقط ساعات. ومرة أخرى، لم تنكشف الغُمة إلا بتوبة

الناس والدعاء والرجوع إلى الله. ولم تمض شهور حتى عاد الناس إلى ما كانوا عليه فحلت هذه الجائحة التي جعلت الماء والغذاء والهواء والأثاث مسكنا للدماء وللضفدع.

وصوتك محبوس في حنجرتك من الهلع، أردت أن تنبه الحضور بخطورة الموقف، فإذا كانت جائحة الجراد الأولي استمرت لساعات قليلة، وجائحة القُمَل والجراد استمرت لبضعة أيام، فمن المتوقع لهذه الجائحة الثالثة أن تبقي لأسابيع. فكلما عدنا لدنيانا ونسينا، حلت جائحة أشد وأطول. ولن يرفع الله عنا الغمة هذه المرة إلا إذا أخلصنا الدعاء وعقدنا النية على التوبة والاستغفار وإلا فلا مخرج لنا من هذا العذاب.

وكأنك متهم بما يحدث، أو كأنك تريد أن تكفر عن ذنوبك، ظللت تبتهل في الدعاء والاستغفار والتوبة لله وأنت جاثٍ على ركبتيك وسط الدماء والضفدع ينهش لحمك وأنت لا تبالي إلا بالدعاء لعل الله يريح عباده ويرفع الغمة.

كنت سعيدا عندما رأيت كل الحضور يفعلون كما تفعل، ويرددون الدعوات لله، ويقدمون النذر لله متوسلين ومتسولين الرحمة وحسن الظن في رفع البلاء. كنت سعيدا جدا أن أري بعضهم يلح في الدعاء وهو الذي لم يعرف للصلاة طريقًا ولا دارًا.

نعم، أتذكر ملامحك جيدا وأنت تُذَكر الناس بالله ورحمته وعقابه والناس حولك يتمنون أن تكون أنت الأقرب إلى الله لعل دعاء يستجاب.

وعيني عليك لا تفارقك، فجأة رأيت ضفدعة كبيرة تلتف بذراعيها حول عنقك وتكاد تفتك بك وتخنقك وأنت لا تستطيع المقاومة بعد أن بخت الدماء في عينيك. جريت نحوك وظللت أصرخ وأصرخ من خوفي عليك حتى امتلأ المكان بصريخي الذي هز المكان.

المشهد الرابع

وأنا ما زلت في نوبة الصراخ، فوجئت بزوجتي وأولادي حولي منهم من يربت على كتفي، ومنهم من يسقيني ماء، ومنهم من يقبل وجنتي، ومنهم من يقرأ سورة الكرسي وأنا بينهم ما زلت أصرخ وسط سريري. انهال الأولاد على "ماذا بك يا بابا". رددت أرسم الابتسامة على شفتي رغم الخوف بداخلي، الحمد لله يا أولاد فقد كان كابوس حرب بيولوجية من الجراد والقمل والضفادع والدم. الحمد لله أننا بخير.

سألتني زوجتي بابتسامة بها بعض من السخرية الضحوكة، وما سبب هذا الكابوس الكبير؟! ومالك بالجراد والقمل والدم والضفادع يا زوجي العزي؟!

كنت أقرأ سورة الأعراف حتى وصلت إلى الآية التي تقول: {فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ} [الأعرف: 133] وهي أصناف العذاب التي أرسلها الله على قوم فرعون عندما افتروا على الله ولم يستمعوا إلى سيدنا موسي وهارون وضلوا الطريق وأرادوا أن ينكلوا بقوم إسرائيل في مصر. ودون أن اشعر نمت وأنا أردد هذه الآيات...

- واضح أنها أثرت فعلا على عقلك الباطن فهي مخيفة. وقد يكون هذا التأثير بسبب الأخبار التي بدأت تتناقلها وسائل الإعلام هنا وهناك عن الفيروس الجديد في الصين وخوفك من ظهوره.

رد أحد الأبناء: فعلا يا بابا أعداد المصابين بهذا الفيروس بدأت تزداد، ويقال إن هذا الفيروس أقوي من زميله الذي أصاب السعودية منذ سبع سنوات في 2013 والذي كان قبله في 2003.

فعلا يا أولاد، واضح أن قراءة هذه الآية مع هذه الأخبار القادمة من الصين هي السبب وراء هذا الكابوس المخيف، ولكني أخاف كل الخوف أن يحدث لنا مثل ما حدث لفرعون وقومه جراء الكائنات التي أرسلها الله من جراد وقمل وبق وضفدع ودم ليعذبهم بها على عصيانهم وفجورهم.

ردت الزوجة بابتسامة هادئة لتخفف عن زوجها الذي مازال الخوف من الكابوس يسيطر عليه. لا تقلق زوجي الحبيب فنحن لسنا في زمن فرعون ولا نحن بني إسرائيل.

نظر الرجل في عيني زوجته والقلق من الكابوس مازال يتملكه ولكن نحن أيضا شعوب بعدت عن الطريق تماما كما قلت لصديقي في الكابوس. فقد انتشر فينا الظلم والفساد والمحسوبية والرشوة والمحاباة والربا والزنا والقتل والغيبة والنميمة والبهتان كالنار في الهشيم. وكل ما أخشاه أن يتحقق الكابوس ليكون نذيرًا أخيرًا من الله.

لكي أطمئنك دعنا نشاهد التلفاز لكي تسمع بنفسك آخر الأخبار عن الفيروس الجديد في الصين وتتأكد أن الأمور ليس فيها ما يقلق.

فتحت الزوجة التلفاز ليتفاجأ الجميع بالخبر الصادم وهو أن فيروس كورونا أصبح جائحة عالمية وعلى الناس أن تلزم بيوتها لأنه أخطر من الفيروسات السابقة.

وحتى داخل البيوت على الجميع اتخاذ جميع الاحتياطات من العدوي فقد تخطي عدد المصابين يوميا عشرة آلاف ولا يوجد أي علاج.

قفز الرجل من سريره ليحتضن أولاده وزوجته ليطمئنهم ولكنه توقف على الفور وابتعد وطلب منهم أن يبتعدوا خوفا عليهم بعد أن تذكر التحذير. ناشد الرجل الجميع أن يرفعوا أكفهم إلى السماء بالدعاء والتضرع المخلص إلى الله لعله يزيح هذه الغمة عن البلاد...

وبعد أن أنهي الجميع طقوس الدعاء، خرجت الزوجة إلى المطبخ بعد أن اطمأنت على زوجها وتركت معه الأولاد.

تساءل أحد الأبناء: هل ممكن يا بابا فعلا أن يكون الفيروس مخلق في المعامل كحرب بيولوجية من دول ضد دول أخرى...؟

وبحسرة وخوف من القادم أجبت على ابني... وقد تكون يا ولدي حرب بيولوجية من الله على عباده بسبب الترف والتطرف والظلم والفساد كما فعل مع الشعوب السابقة، ولكن هذه المرة لم يرسل علينا ضفدعًا أو قملًا أو جرادًا أو بقًا أو طيرًا مسومة ولكن فيروسًا لا



نراه إلا بأدوات التكنولوجيا التي طالما نتفاخر بها ونتجبر ونفسد. الله يا بني يسلط الناس بعضهم على بعض بظلمهم.

- وهل ستستمر هذه الحرب البيولوجية طويلا يا أبي؟!!

قد تنتهي ولكن سوف يأتي غيرها طالما الناس لا يخلصون في نياتهم وكلامهم وأعمالهم.

المشهد الخامس

عادت الزوجة من المطبخ وتدخلت لتغير الموضوع، كفي حديثا عن هذا الفيروس اللعين واستعدوا جميعا فقد حان موعد العشاء فقد جعنا يا زوجي الحبيب.

اذهبوا أنتم لتناول العشاء وأنا سوف أذهب أولا لصلاة العشاء.



تمت بحمد الله

د. محمد لبيب سالم



نبذة عن الكاتب



ولد د. محمد لبيب سالم في 28 ديسمبر 1962 في قرية دهتورة مركز زفتي محافظة الغربية في وسط الدلتا بمصر.

حصل د. لبيب على بكالوريوس العلوم عام 1984، وماجستير العلوم في 1989، والدكتوراه في 1995 من خلال بعثة إلى جامعة كيوشو باليابان.

د. لبيب أستاذ علم المناعة بكلية العلوم ومدير مركز التميز لأبحاث السرطان والمدير السابق لمركز المشروعات والابتكارات ونقل التكنولوجيا بجامعة طنطا والمشرف على مركز تنمية إقليم الدلتا التابع لأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ورئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية لأبحاث السرطان وعضو مجلس إدارة مدينة زويل للعلوم والتكنولوجيا والمستشار العلمي لجامعة الجلالة والمستشار العلمي لمراكز تنمية الإقليم التابعة لأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا.

نشر د. لبيب أحد عشر عملًا أدبيًّا من 2014 حتى الآن عبارة عن أربع روايات وأربع مجموعات قصصية وثلاثة كتب علمية وله أكثر من مائة

وعشرين مقالًا في تبسيط العلوم والتي تم نشرها في العديد من المواقع والجرائد والمجلات المصرية والعربية.

كما يلقي د. لبيب محاضرات عامة في الجامعات والمدارس والجمعيات الأهلية عن الأدب والعلم وتبسيط العلوم والإعجاز العلمي في البيولوجيا عامة والجهاز المناعي خاصة. كما أن له قناة على اليوتيوب يقدم فيها محاضراته.

حصل د. لبيب على جائزة عبادة الدولية في العلوم وجائزة خليفة التربوية في التعليم الجامعي للأستاذ الجامعي المتميز على مستوى الوطن العربي لعام 2020 جائزة جامعة طنطا للتميز العلمي 2020 وعلى وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى من السيد رئيس الجمهورية في 2019 وجائزة الدولة التقديرية لعام 2018 وجائزة الدولة للتفوق لعام 2009 وجائزة الدولة التشجيعية لعام 2003 وجائزة جامعة طنطا التقديرية لعام 2015.

وسائل التواصل



mohamedlabibsalem@yahoo.com

الأعمال المنشورة للكاتب

- وقت للبيع: د. محمد لبيب سالم رواية عن دار أطلس للنشر والتوزيع 2014.
- العشق الحلال: د. محمد لبيب سالم مجموعة قصصية عن دار أطلس للنشر والتوزيع 2015.
- زحمة مشاعر: د. محمد لبيب سالم مجموعة قصصية عن دار أطلس للنشر والتوزيع 2016.
- كاندليه: د. محمد لبيب سالم رواية عن دار أطلس للنشر والتوزيع 2017.
- الرصاصة الجينية: د. محمد لبيب سالم رواية - الناشر: دار النابغة - مصر 2019.
- سور الخوف العظيم: د. محمد لبيب سالم مجموعة قصصية الناشر - دار كيانك - مصر 2021.
- سور الخوف العظيم: د. محمد لبيب سالم مجموعة قصصية الناشر - دار كيانك - مصر 2021.

- زواج بويضة: د. محمد عبد الحميد شاهين - د. محمد لبيب سالم كتاب علمي ضمن سلسلة المكتبة العلمية - كتب علمية مبسطة. الناشر: أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا - مصر - 2019.
- سفاري إلى الجهاز المناعي: د. محمد لبيب سالم رواية علمية ضمن سلسلة المكتبة العلمية - كتب علمية مبسطة. الناشر: أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا - مصر - 2018.

كتب تحت الطبع

- ❃ بطل من بلدي: د. محمد لبيب سالم رواية تحت النشر 2021.
- ❃ علم المناعة والأمصال والتطبيقات: د. صبري على النجار - د. محمد لبيب سالم. كتاب علمي تحت الطبع 2021.
- ❃ تأملات في فيروس كورونا: د. محمد لبيب سالم. تحت الطبع 2021.
- ❃ تأملات في حياة القطط: د. محمد لبيب سالم كتاب تحت الطبع 2021.
- ❃ تأملات في بيولوجيا الخلية: د. محمد لبيب سالم تحت الإعداد.
- ❃ تأملات في الجهاز المناعي: د. محمد لبيب سالم. كتاب تبسيط العلوم.
- ❃ تأملات في بيولوجيا النفس: د. محمد لبيب سالم تحت الإعداد.
- ❃ تأملات في مشوار الحياة: من ذكريات المدن كتاب: د. محمد لبيب سالم. من أدب الرحلات والسيرة الذاتية - تحت الإعداد.
- ❃ العلاج المناعي للأورام: د. محمد لبيب سالم. كتاب علمي تحت الطبع.

فهرس القصص

توقيع/ ______________________



"حاول أن ينادي بأعلى صوته لعل أحدا وراء هذا السور الذي بناه بأحجار الخوف يسمعه ويلبي نداءه الخافت ويفتح له بابا من أبوابه وينقذه. ولكن لم يلبِّ أحد النداء، فكيف لأحد أن يسمع صوته الخافت؟ وكيف لأحد أن يعتلي هذا السور العملاق؟ وكيف لأحد أن يفتح أبوابا لا يملك مفاتيحها؟ ظل ينادي وظل صوته يتهاوى حتى راح صوته في غيبوبة صمت وسكون".

تلك هي مشاعر الخوف التي إذا تمكنت من النفس نهشتها رويدا رويدا حتى تصيبها بسوس ينخر اعماقها حتى يمزقها اربا اربا. فالخوف أكبر مطرقة وهمية، ويهدم كأعنف مطرقة حديدية، لأنه يفسد النفس ويضعف الروح ويهلك البدن. وإذا كان في الخوف موت بطيء لأسرار الحياة، إلا أن النفس ما أن تدرك أنه سراب، تستجمع قواها وتمزق حباله وتطرحه أرضا وتكمل الطريق.

وعن تلك المشاعر تدور هذه المجموعة القصصية التي قد تجد نفسك فيها هنا أو هناك وسط اسوار من المشاعر.

الكاتب

د. محمد لبيب سالم



تصميم الغلاف | يوسف السيد

